

بوهوميل هرابال

ترجمة
بسّام حجّار

قطارات تحت الحِراسة المشدّدة




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)


قطارات
تحت الحراسة المشددة



روايات من العالم

قطارات تحت الحراسة المشددة

بوهوميل هرابال

ترجمة
بسام حجار



١٩٩٠

سلسلة روايات من العالم / ٤

الرواية قطارات تحت الحراسة المشددة

التأليف بوهوميل هرابال

الترجمة بسام حجار

الناشر دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ص. ب: ١١ / ٣١٨١ ـ ت: ٠١/٣٠٥٥٢٠

التنضيد شركة المطبوعات اللبنانية ش.م.ل

الطبعة الاولى ١٩٩٠

تصميم الغلاف نجاح طاهر

تقديم

هرابال

براغ والوحدة والذاكرة



ولد بوهوميل هرابال في برنو عام ١٩١٤ ، وبعد طفولة قضاها في «نيمبورغ» ، وهي بلدة صغيرة في مقاطعة بوهيميا حيث كان والده يُدير حانة محليّة صغيرة ، غادر إلى براغ عام ١٩٣٩ للالتحاق بكليّة الحقوق . ولم يحصل على شهادته (دكتوراه في القانون) إلاّ عام ١٩٤٦ بسبب إغلاق الجامعات التشيكية من قبل السلطات الألمانية المحتلّة ، ولكنّه لم يُمارس مهنة المحاماة . ورغبةً منه في الانغماس في الأوساط الاجتماعية الأكثر تنوّعاً ، أوجد لنفسه «مصيراً اصطناعيّاً» فعمل على التوالي كمساعدٍ لكاتب عدل ، وبائع في مخزن وعامل في السكّة الحديد ، ثمّ بعد نيله شهادة الدكتوراه في القانون ، كموظف في شركة تأمين وبائع متجوّل وعامل في مصانع الصلب في كلادفو وكومبارس في عدد من المسرحيّات .

وكان هرابال طوال فترة تنقّله من مهنةٍ إلى أخرى يُثابر على الكتابة دون أن يكون لديه أدنى أملٍ في أن يرى نصوصه مطبوعة في يومٍ من الأيام . إلاّ أن بدايات انفتاح الستار الحديدي جعلت

هذا الأمر ممكناً . وصدرت له في عام ١٩٦٣ أولى كتاباته بعنوان : «لؤلؤة في القعر» وقد لاقى كتابه الأوّل هذا استقبالاً حسناً لدى القرّاء ورأى فيه النقدُ آنذاك كاتباً من «براغ» في الخط الذي رسمه «ياروسلاف هازيك» و «فرانتز كافكا» . وقد لاقت كلّ كتبه التالية استقبالاً مشابهاً من الترحيب والحماس النقديين وعلى الأخص روايته : «قطارات تحت الحراسة المشدّدة» (١٩٦٩ ، للترجمة الفرنسية) والتي اقتبسها «جيري منتزل» ، أحد مخرجي الموجة الجديدة في تشيكوسلوفاكيا ، للسينما ونال الفيلم الذي حققه جائزة أوسكار .

يقول هرابال في إحدى المقابلات التي أجرتها معه «المجلّة الأدبية» (الفرنسية) ، عدد حزيران ١٩٨٨ ، «كنت في السابعة عشرة حين بدأت بالكتابة ، وأحسب أن أوّل ما تأثرت به يعود إلى «جيوزيبي أونغاويتي» والسرياليين ، وكان تزارا (تريستان) قد جاء في زيارةٍ إلى «براغ» في ذلك الحين . ولكنني كنتُ أيضاً قارئاً نهماً للكاتب التشيكي لاديسلاف كليما (١٨٧٨ ـ ١٩٢٨) وخاصة روايته : «عذابات الأمير شترنهوخ» . وبرغم بداياته المبكرة فإنّ بوهوميل هرابال لم يمتهن الكتابة ويكرّس «حياته» للأدب إلاّ في سنّ متأخرة نسبيّاً ، ولذلك ربّما ، ظلّت أعماله ، في الجانب الغالب منها ، أقرب إلى السيرة الذاتيّة . ويوضح هرابال هذا الميل قائلا : «لطالما كان الشاغل الأساس في حياتي هو التذكار . ويبدو لي أنّه الشرط الضروري والذي لا غنى عنه لمتابعة الكتابة . وبهذا المعنى ترى السيرة الذاتية هي المادة الأولى في رواياتي ولكنّها مشغولة

بالحكاية المتخيّلة ، بالأسطرة . ذلك أن طريقتي في الكتابة تجمع دائماً بين التحقيق الصحفي والتحويل الأسطوري (الخرافي) للواقع» .

إنَّ أعمال هرابال تشبه إلى حدٍّ بعيد لعبة التخفّي الحقيقيّة ، وما يجعلنا نصدّق هذا الانطباع عودته باستمرار إلى نصّه المكتوب لاستبدال أو تغيير بعض ما فيه ، حتّى أنه يسمح أحياناً بتداول صيغٍ مختلفة للنصّ الواحد بحيث يجعل من مهمّة الناقل عن الأصل التشيكي مهمّةً شاقة بالفعل . قد يكون هرابال مثال الكاتب الذي لا يُقيم على حال أو هيئة ، فهو لا يرغب في أن يُصبح رهين عالم كتبه . ففيها تقوم الذاكرة بحشد شخصيّات وأماكن تجمع فيما بينها ولكنْ دائماً عبر المسافة التي تفرضها السخرية : «السخرية بالغة الأهمية بالنسبة لي . وهي بأية حال جانب من السلوك الماثل في أعمال كل الكتّاب التشيكيين الذين أحبّهم : ياكوب دمل ، لاديسلاف كليما أو ياروسلاف هازيك . ولقد تأثرت كثيراً بالسخرية المدمّرة لهذا الأخير . أحسب أن السخرية هي ، على نحو ما ، حال المواجهة القصوى بين ذات ما ووضع اجتماعي ما» .

وحين يُسأل هرابال عن ردّة فعله ازاء الرقابة على نشر بعض كتبه في بلاده (قبل التغييرات الحالية التي تشهدها أوروبا الوسطى) ، يقول : «لم يكن شاغلي يوماً أن أنشر ما أكتبه ، بل على العكس أن اكتب ما ينبغي أن يكون معلناً . المهمّ ، قبل أي اعتبار

آخر ، هو أن يقرأ أعمالي الأصدقاء في الوسط الذي يحيط بي . وفي بلدي ، أصدقائي يقرأون كلّ كتبي . فالكتابة دائماً هي نوع من الشغل المنفرد ، إنّها دائماً العبارة عن الوحدة ، العبارة عن وحدة «صاخبة» .

كذلك الأمر فإنّ هرابال بنى أعماله إنطلاقاً من أمزجة خاصة في القراءة . يقول : «القراءات التي كانت حاسمة في مساري الأدبي هي قراءة ريلكه ، وسيلين وت . س . إيليوت ، والسرياليين . بدأت في الثلاثينيات ولا زالت مستمرة حتّى اليوم . وإذا كان يتوجب عليّ أن اختار «معلّماً» في الأدب الفرنسي ، فسأختار «ألبير كامو» . لقد كنت شديد التأثر بطريقته في معالجة نصّه السردي . وأشعر بأنني أقرب إلى هذه الطريقة . فأنا لا أبالي كثيراً بقضايا «الشكل» الأدبي وما يعنيني دائماً هو «المضمون» . ولهذا السبب ربّما لم اهتمّ كثيراً بموجة «الرواية الجديدة» . فقد تعلّمت ، في الحقيقة ، وفي وقتٍ مبكر ، بأن الكتابة هي تماماً كما يراها لاديسلاف كليما مجرّد «لعب» » . ويُضيف هرابال بأنّ الكتابة الأولى للنصّ هي فعلاً «تجسيد حرّية الكاتب» ولكن ، فيما يعنيه ، «جلجلة فلوبير» هي الكتابة الثانية أو الثالثة أو . . . ولكنْ ما يشفع لها ، أي الكتابة ، هي أنها لحظة تعويض واستدراك ضرورية : «كتابتي هي نوع من سيرورة العلاج النفسي الذاتي . ومعها ينتظم عالم التأمل الذي أشعر أحياناً أنّه أقرب «للاعتراف الكاثوليكي» . فالكتابة هي طريقة في معالجة ذاتي ، وفي تجنّب الذهاب إلى المستشفى . طريقة في «خلاص» ذاتي» .

بوهوميل هرابال الذي يُعتبر اليوم إلى جانب ميلان كونديرا ، أحد كتّاب تشيكوسلوفاكيا الأحياء الأكثر شهرةً ، والذي ترجمت أعماله إلى عددٍ كبير من لغات العالم ، لم تنقل أعماله إلى الفرنسية أو الإنكليزية إلاّ في أواخر الستينات . كما لم تنقل أيّ من رواياته ، على حدّ علمنا ، إلى العربيّة . ومن بين عشرين مؤلفاً صدرت له في بلاده أو تناقلها قرّاؤه سرّاً ، نذكر تلك التي نقلت وصدرت في العواصم الأوروبيّة : «قطارات تحت الحراسة المشدّدة» ، «أنا الذي خدمت ملك انكلترا» ، «وحدة بمثل هذا الصخب» ، «البلدة الصغيرة حيث توقف الزمن» ، «الشعر الأضحية» ، «قسوة ملمومة» ، «للبيع بداعي السفر» ، «الهمجي الرقيق» .

المترجم



في تلك السنة ، سنة ألف وتسع مائة وخمسٍ وأربعين ، كان الألمان فقدوا السيطرة على الأجواء في سماء مدينتنا الصغيرة . كما كانت سيطرتهم أقلّ في سماء المنطقة ، وكلِّ البلاد . والقاذفات المغيرة أربكت مواعيد سير القطارات ، حتّى أنّ قطارات الصباح كانت تمرّ عند الظُّهر ، وقطارات الظهر عند المساء ، وقطارات المساء ، في ساعاتٍ متأخّرة من الليل ، وإذا صادف أن وصل قطار بعد الظهر في موعده ، نكتشف أنه قطار بطيء تأخّر موعد وصوله أربع ساعات كاملة .

أمس الأوّل ، أسقطت مُطارِدةٌ عدوّة مطاردةً ألمانيّة في سماء مدينتنا الصغيرة ، وأفقدتها أحد جناحيها . اشتعلت حجرة الطيّار وهوت في الحقول المجاورة ، ولكنَّ الجناح ، بانفصاله عن هيكل الطائرة ، أفْلَتَ جفناتٍ من البراغي والمسامير التي سقطت في الساحة ، وخدشت ، في سقوطها ، عدداً من رؤوس النساء . ولكنّ الجناح كان يحوّم في سماء مدينتنا الصغيرة ، وكان كلُّ من يستطيع التحديق يُراقبُه ، حتّى بدأ يهوي بحركةٍ ناشزة فوق الساحة

تماماً حيث هرع زبائن الحانتين. فيما ظلّ الجناح يَنسحبُ على أرض الساحة والناس يعبرونها مهرولين ثمَّ يعودون أدراجهم ويعبرونها في الاتجاه المعاكس مهرولين أيضاً ، بسبب الجناح الذي يتأرجح جيئةً وذهاباً مثل رقّاصٍ ضخمٍ ويدفع الأهلين إلى الجهة المقابلة لنقطة سقوطه المحتمل وهو يُحدث هديراً مُتعَاظِم القوة وصوتاً شجيّاً . ثمَّ تعاظمت سرعة هبوط الجناح وهوى في حديقة السيّد العميد . ولم تمض خمس دقائق حتىً كان أهل المدينة يتنازعون القطع وألواح الفولاذ التي ظهرت ، منذ صبيحة اليوم التالي ، على سطوح حجرات الأرانب وخمة الدجاج ، ولم يحلّ بعد الظهر حتىً قطع أحد السكّان هذا الصفيح المسروق وصنع منه ، في المساء ، ألواحاً رائعة للوقاية من الوحل وثبّتها على جوانب درّاجته الناريّة . وهكذا اختفى الجناح كما اختفت كل ألواح الفولاذ وكلّ قطع هيكل طائرة «الرايخ» التي سقطت في الحقول المغطاة بالثلوج خلف مدينتنا الصغيرة . وكنتُ في طريقي على درّاجتي إلى هناك ، بعد نصف ساعة من سقوط الطائرة ، لأرى . وصادفت قبل أن أصل أناساً يجرّون الغنائمَ في عربات . وكان يصعب عليّ أن اخمّن ما الفائدة من هذه الأشياء ، ولكنّي تابعتُ طريقي ، على درّاجتي ، إذ كنت أريد أن أرى تلك الطائرة المحطّمة . فأنا لا أطيق الكواسر الخطّافة ، وطبعاً لستُ من طينة أولئك الذين يهرعون لجمع أو تفكيك قطع الآليات ، والخردة ! ولكنَّ أبي كان يسير قدماً على الدرب المغطّى بالثلج المَدوس والذي يؤدّي إلى الحطام المحترق، كان يحمل آلة موسيقيّة فضيّة لا أعرف ما هي وكان يبتسمُ وهو يرفع تلك الأنابيب الفضيّة وكأنها نوع من الأنابيق الحلزونية . أجل

كانت عبارة عن أنابيب وجدها في الطائرة ، الأنابيب الموصلة للمحروقات ، وعند المساء ، فور وصوله إلى البيت ، لم ألبث أن أدركت سبب بهجة أبي بتلك الغنيمة . إذ قطّعها إلى أجزاء متساوية ولمّعها ثمّ وضع إلى جانب الأنابيب الستّين اللامعة ، قلمه ذا الرصاصة المتحرّكة والذي له براءة اختراعه . كان أبي يُجيد كلّ شيء ، لأنّه أُحيل على التقاعد منذ أن كان في الثامنة والأربعين من العمر . وسبب تقاعده المبكر أنّه كان ميكانيكياً فبدأ حياته المهنية بالعمل على متن قاطرة وهو لم يتجاوز العشرين ، وهكذا كانت سنوات الخدمة تُحتسبُ مضاعفة لسنّ التقاعد ، ولكنّ سكان البلدة ما كانوا يطيقون فكرة أن أبي سيمكث بينهم عشرين أو ثلاثين سنة أخرى في هذه الحياة الدنيا . ثمّ أن أبي كان يسبق في نهوضه باكراً أولئك الذين يذهبون إلى أعمالهم . وكان يلتقط كلّ ما يعثر عليه في أنحاء المنطقة كلّها ، براغي وحدواتِ أحصنة ، وكان يعثر في المكبّات العمومية على كل أنواع الحراتيق والأدوات والقطع التي لا تنفع لشيء ويحتفظ بها كلّها في منزلنا ، في الأقبية والعنابر . وكنا نحسبُ ، فى بيتنا ، أننا نقيم عند أحد جامعي الخردة . إذا حدث وأراد أحد سكان البلدة أن يتخلّص من أثاثه القديم ، فإنّ أبي دائماً على أهبّة الإستعداد لأخذ كلّ شيء . كنّا ثلاثة فقط في البيت ولكننا كنّا نملك نحو خمسين كرسيّاً ، وسبع طاولات وتسع كنبات إضافة إلى كميّات كبيرة من الرفوف والجرار والمغاسل . ولكنّ أبي لم يكن مكتفياً بعد ، فكان يتجوّل على درّاجته في أنحاء المنطقة ويتجاوزها إلى أبعد أحياناً ، وينقّب في المكبّات العمومية بواسطة خطّاف حديدي ويعود في المساء محمّلاً بالغنائم لأنّ كلّ شيء ينفع ذات

يوم ، وكان محقّاً بالفعل ، فإذا أراد أحدهم أن يحصل على قطعة غيار لم تعد المصانع تنتج مثلها ، قطعة غيار لسيّارة أو لمطحنة أو لدرّاسة ولم يستطع أن يجدها ، تراه يطرق بابنا فيفكّر أبي لهنيهةٍ ثمَّ يتوجَّه ، دون تردّد ، إلى القبو أو العنبر أو إلى الفناء الخارجي حيث أكوام الخردة ، ويقلّبها بخطافه الحديدي ويلتقط من بينها ، في لمحة ، قطعةً تفي بالغرض . لذلك كان أبي زعيم حملات يوم الأحد الأسبوعية لجمع الأدوات المعدنية القديمة ، وكان لا يفوته أبداً في طريقه إلى المحطّة حيث توضع الغنائم ، أن يمرّ ببيتنا وأن يحتفظ لنفسه ببعض خردة يوم الأحد هذه . ومع ذلك ما كان أهل البلدة ليغفروا له أبداً . ولا شك في أن السبب والد جدّي ، لوكاس ، الذي حظي بإيرادٍ يبلغ «فوراناً» واحداً في اليوم منذ سنّ الثامنة عشرة ، ثمَّ نال ، فيما بعد ، نفقةً بالكورون في عهد الجمهوريّة . ولد والد جدّي لأبي عام ١٨٣٠ . وعام ١٨٤٨ كان أصبح طبّالاً في الجيش ، وتبعاً لذلك شارك في القتال على جسر «شارل» حيث كان الطلاّب يرشقون الجنود بطوب الأرصفة والطرقات فأصابوه في ركبته وسبّبوا له عطلاً دائماً واعتُبر مُقعداً . ومنذ ذلك اليوم نال جعالة قيمتها فوران واحد في اليوم . وكان يشتري بمال هذه الجعالة ، كلَّ يوم ، قنّينة روم وعلبتي تبغ ، ولكنّه بدل أن يمكث في بيته هانئاً يدخن ويمزّ شرابه كان يطوف برجله العرجاء في الشوارع والطرقات ويفضّل لنزقه أن يتوجه إلى أماكن العمل حيث يعمل الآخرون بكدّ فيناكف العمّال ويحتسي شرابه ويدخّن تبغه تحت أنظارهم الحاسدة ، فكان والد جدّي ، لوكاس يتعرَّض للضرب المبرّح مرّة في السنة على الأقلّ . حتى أن جدّي كان يضطّر احياناً لنقله ، وهو في أسوأ

حال ، على عربة جرّ إلى المنزل . ولكنّه ما أن يستعيد عافيته كان يعود إلى طوافه في الطرقات يسأل الناس عمّا إذا كانوا لا يودّون مبادلته بوضعه ، وهكذا حتى يتعرّض من جديد للضرب المبرّح الذي لا يليق بمسيحيّ مثله . ثمّ جاء سقوط الامبراطورية النمساوية المجريّة فحُرِمَ والد جدّي من جعالته التي كان يقبضها منذ سبعين عاماً . ومع النفقة التي كانت تدفعها الجمهورية انتهى عهد قنينة الروم وعلب التبغ . ولكنّ والد جدّي كان يتعرّض للضرب المبرّح كلّ سنة لأنه كان يواصل استحضار السنوات السبعين التي استطاع خلالها أن يشتري قنّينة الروم وعلب التبغ . وذات يوم من عام ١٩٣٥ إرتأى والد جدّي أن يذهب ويتبختر أمام أنظار عمّال مقلع حجارة بعد أن أقفل مقلعهم فضربوه حتّى الموت . وكان الطبيب يقول أنه كان ليحيا مدّة عشرين سنة أخرى . كانت أسرتي إذن ، محطّ كراهية البلدة بأسرها . أمّا جدّي ، ولئلا يكون مديناً لسمعة والد جدّي لوكاس ، فقد كان منوّماً مغنطيسيّاً . وكان يعمل في جوقات السيرك التي تجوب المقاطعات الريفية. أمّا أهل البلدة فكانوا يرون في عادة تنويم الناس هذه البرهان الأكيد على أنه يفعل ما في وسعه لكي لا يفعل شيئاً . ولكن في شهر آذار ، عندما اجتاز الألمان الحدود عنوة لاحتلال كلّ البلاد وتقدّموا باتجاه «براغ» كان جدّي هو الوحيد الذي ذهب لملاقاتهم ، وحده جدّي ذهب لمواجهة الألمان وقطع الطريق عليهم بتنويمهم ، ولإيقاف الدّبابات المتقدّمة بقوة الفكر . إذن كان جدّي يتقدّم وعيناه جاحظتان تحدّقان في أولى دبّاباتهم طليعة جيوشهم المؤلّلة . وكان يقفُ في برج هذه الدّبابة أحد جنود الرايخ وقد ظهر جذعه حتى الزنّار ، كان يعتمر «بيريه»

سوداء وعليها شارة جمجمة فوق عظمتين متقاطعتين ، وكان جدّي يواصل تقدّمه مباشرةً باتجاه هذه الدبّابة ، كانت ذراعاه ممدودتين ومن عينيه يضخّ أفكاره باتجاه الألمان ، استديروا وعودوا من حيث أتيتم . . . وبالفعل توقفت طليعة الدبّابات وتوقف الجيش برمته في صفٍّ خلفها ، لامس جدّي هذه الدّبابة برؤوس أصابعه ولم يتوقف عن بثّ الفكرة نفسها . . . استديروا وعودوا من حيث أتيتم ، استديروا وعودوا من حيث أتيتم ، استديروا . . . ثمَّ أشار الملازم ببيرق صغير وانطلقت الدبّابة من جديد ، ولكنّ جدّي لم يتحرَّك من مكانه فهرسته الدبّابة وقطعت له رأسه ولم يبق هناك ما يقف في وجه جيوش الرايخ . وفيما بعد ذهب أبي لإحضار رأس جدّي . كانت طليعة الدبّابات قد توقفت قسراً قبل وصولها إلى براغ في انتظار وصول رافعةٍ لسحب رأس جدّي العالق بين زردات الزنجير ، ولكنّ زردات الزنجير كانت في وضعٍ أتاح لأبي أن يحظى بالإذْنِ لأن يسحب بنفسه رأس جدِّي بُغيةَ دفنه مع الجثة كما يليق بمسيحي . ومنذ ذلك الحين والنقاشات الواسعة لا تهدأ في كلِّ أرجاء المنطقة . كان البعض ، ينعت جدّي بالمجنون ، ولكنَّ البعض الآخر كان يقول إنّه لم يكن مجنوناً لهذه الدرجة ، وأنّه لو تصدّى الجميع للألمان كما فعل جدّي ، وفي يده سلاح ، فمن يدري ما كان عساه يحلّ بهم .

كنّا ، في تلك الحقبة ، لا نزال نسكن الريف ، ولم ننتقل للإقامة في المدينة إلاّ فيما بعد ، وأنا الذي كنتُ معتاداً على الوحدة ، أحسست منذ وصولنا إلى المدينة بأن العالم يضيق . ومنذ ذلك الحين

اعتـدتُ أن أخـرج من المـدينـة لكي أتنفَّس . ومـا أن أعـود وأرى الشـوارع والأزقّة الضيّقـة من النـاحيـة الأخـرى للجسر حتّى أشعـر أنني ، أنا نفسي ، أضيق ، كان ولا يزال وسيظل ينتابني الشعور بأنَّ عينين اثنتين على الأقلّ تراقبانني خلف كـلّ نافـذة . وعند سمـاعي مَنْ يلفظ إسمي كنت أتـورّد خجلاً لمجـرَّد الفكـرة أن الجميـع كـان لديهم ما يتهامسونه في شأني . فمنـذ ثلاثـة أشهر جـرحت معصميّ من دون سبب ظاهر . ولكن كـان لي سببي وكنتُ أعرفـه وما كنتُ أخشى سوى أمر واحد وهو أن يفطن له أحدٌ ، هذا السبب ، لمجرَّد أن يـراني . ولذلـك كنتُ أتخيل العيـون تراقبني خلف كـل نافـذة . ولكن ما الذي لا يتخيّله المرء حين يكون في الثانية والعشرين ؟ كان في استـطاعتي أن أحسبَ أنَّـه إذا كـان أهـل مـدينتنـا الصغيـرة يـراقبونني ، فـلأنّي جززتُ أوردة معصميّ لكي أتهـرّب من العمـل الذي كانـوا يُنجزونـه بدلاً مني ، كـما كانـوا يعملون بدلاً من والـد جدّي لوكاس وجدّي «فيلم» الذي كان منوِّماً مغنـطيسيّاً وأبي الـذي قاد القاطرة طوال ربع قرن لسببٍ وحيـد وهو أن يُتـاح له بعـد ذلك الاستغناء عن العمل .

في تلك السنة ، كان الألمان قد فقـدوا سيطرتهم عـلى الأجواء في سـماء مدينتنـا الصغيرة . وعنـدما وصلت إلى هيكـل الطائـرة كانت المسـاحة المغـطاة بالثلج تلمـع وفي كلّ بلّورة ثلج كنتُ أحسبُ أنني أسمع تكّة عقربِ ثوانٍ ضئيل ، كان الثلج يتهالك ، ويستحيـل إلى جميع الألوان تحت الشمس اللاهبة ، وكنتُ أسمع تكّة الساعة هـذه في كـل بلّورة وفي أي شيء آخـر . كـانت تكّـة سـاعتي مسمـوعـة

بوضوح ، ولكنّي أسمع أيضاً تكّة أخرى . وتلك التكّة تصدر عن الطائرة ، عن هذا الركام . وبالفعل ، كانت ساعة لوحة القيادة لا تزال تعمل ، وتشير بدقّة إلى الوقت الذي تحقّقتُ من صحّته بنظرةٍ إلى عقارب ساعتي . ثمّ رأيت ، إلى أسفل لوحة القيادة قفّازاً تُضيئه أشعة الشمس وأنتابني شعور يقين بأن هذا القفّاز لم يكن وحده ، وأنّه يحتوي على يدِ إنسان ، وأن يد الإنسانَ هذه ليست وحدها ، بل هي موصولة بذراع وهذه الذراع موصولة بجسد إنسان لا بدّ أن يكون موجوداً في مكانٍ ما تحت هذا الركام المحترق . ألقيت بكامل ثقلي على دوّاستي الدرّاجة ومن كل صوب كانت تترامى إلى مسامعي تكّات العقارب الضئيلة التي أفزعتها أشعّة الشمس ، وفي البعيد على الخطوط الحديديّة كان قطار بضائع يتقدّمُ ويُحدث صلصلةً مبتهجة ، لقد كان قطاراً بخاريّاً في طريق عودته إلى حوض «موست» ، ومن المؤكّد أنّه من ذوات المئة والأربعين مقطورة ، وقد علق نعلُ المكبح في وسط القطار ، كان يقدح شرراً فينقّطُ المعدنُ السائل على الخطّين ، ولكنَّ القاطرة كانت تقطر القطار بفرح ومعه هذه المقطورة العالقة .

صباح الغد أكون في محطتي الصغيرة ، أشرفُ على خطّ التسيير في اتجاهين حيث كل القطارات التي تتّجه من الشرق إلى الغرب تحمل أرقاماً مفردة وكل القطارات التي تتجه من الغرب إلى الشرق تحمل أرقاماً زوجية . سأعمل من جديد على تنظيم حركة القطارات لأوّل مرّة منذ ثلاثة أشهر ، سأكون في المحطّة التي يعبرها خطّان رئيسان ، والخطّ الرئيس المخصّص للقطارات المتجهة من الشرق إلى الغرب يحمل الرقم ٢ ، وكلّ الخطوط التي تقع إلى يمين الخط ١

تحمل أرقاماً مفردة ، ثلاثة ، خمسة ، سبعة ، وكلّ الخطوط التي تقع إلى يمين الخط الرئيس رقم ٢ تحمل أرقاماً زوجيّة ـ أربعة ، ستة ، ثمانية ، عشرة ، إلخ . لقد وضع هذا الترقيم ، طبعاً ، لنا نحن ، موظفي سكك حديد الدولة ، لأنّ الإنسان العادي من بين الواقفين على رصيف المحطّة ، في محطتي الصغيرة ، مثلاً ، له الخط الأوّل هو الخامس ، والخطّ الثاني هو الثالث ، والخط الثالث هو الأوّل والخطّ الرابع هو الثاني . إذن ، منذ الصباح الباكر سأرتدي من جديد بزّي الحكومية ـ البنطال الأسود والسترة الزرقاء ، السترة النظامية ذات الأزرار النحاسيّة التي تلمّعها والدتي «بالميرور» ، ثمّ أزرِّر الياقة الجميلة التي تحمل شارات مماثلة لشارات السترة ، هذه الشارات التي تتيح لأي عامل في السكّة الحديد أن يتنبّه فوراً لمرتبتي في السلك . على الياقة ، يشيرُ زرُّ التلميذ إلى أنّني تجاوزت البكالوريا بنجاح . والنجمة الرائعة المطرّزة بخيطانٍ مذهّبة تعني أنني موظّفْ متمرّن في سكك حديد الدولة . وفي أعلى الياقة تلمع أجمل الإشارات ، عجلة مجنّحة مزركشة بالأزرق والبنفسجي ، عجلة مجنّحة تشبه حصانَ بحرٍ من ذهب . إذن غداً صباحاً سأذهب قبل بزوغ النهار ، سوف تتبعني أمي بنظراتها ، واقفةً بلا حراك خلف الستارة ، وخلف كل النوافذ التي سأمرّ بها سيقف أناس بلا حراك مثل أمّي وسيحدِّقون فيَّ ، إصبعُهم على الستارة ، وسأمشي الطريق نزولاً حتى النهر ، وحين أصل إلى الدرب خارج البلدة سأتنفّس الصعداء ، كالعادة ، لأنّي لا أحب ركوب القطار للوصول إلى عملي ، فأنا أتنفّس بشكلٍ أفضل على ضفاف النهر ، حيث لا نوافذ ولا فخاخ ، ولا إبر يغرزونها في رقبتك ، من الخلف .



لم يتبدل شيء في مكتب المحطّة منذ لحظة رحيلي . كانت مجموعة إغلاق الخطوط الرئيسة تشبه ، كالعادة ، أرغناً نقّالاً هائلاً أو ماكينة نقود ، وطاولة التلغراف قُبالة النافذة التي تُرى من خلالها ، وعلى مسافة خمسة كيلومترات ، طريق ريفية وعلى جانبيها أشجار تفاح عتيقة وفي آخرها يتألق قصر الأمير كينسكي ، القصر الذي رأيته هذا الصباح ، بُعيد طلوع الشمس ، تغشاه ضبابة خفيفة حتى أعلى الطابق الأوّل كما لو كان معلقاً في طرف سلسلة مذهّبة . وعلى هذه الطاولة ثلاثة أجهزة تلغراف تعود صناعتها إلى نصف قرن سابق من معامل سيمنز هالسكه ، وثلاثة دفاتر قَيْد . كالمعتاد ، كانت الاتصالات تتشابك عبر هاتِفَي الخطوط وهواتف المحطّة الثلاثة ومكتب المحطّة يضجّ ، كالمعتاد ، بالهديل الرقيق ، برنين أجهزة التلغراف ووشوشة الهواتف ، حتّى يُخيَّل لواحدنا أنّه يدخل إلى دكّان لبيع الطيور . على زجاج شبّاك التذاكر ، لجهة ردهة الانتظار ، كانت الستارة الصغيرة الخضراء هي نفسها وقد علّقت بحلقات نحاسية وبجوارها الخزانة المعدنية وآلة ختم التذاكر . تمنّى لي السيد

هوبيكا ، المولج بالأمن ، عودةً طيبة ولم يلبث أن أبلغني أننا سنكون في الخدمةِ معاً . فبعد ثلاثة أشهر من الإجازة المرضيّة كان عليَّ أن أخضع لاختبار تأهيل جديد . ثمَّ سألني عن الساعة وطوى كمَّ قميصي إلى ما فوق المعصم إلاّ أنّه لم ينظر إلى ساعتي بل كانت عيناه تحدِّقان في ندبة الجرح الملتئم .

تورَّدت وجنتاي خجلاً وتشاغلتُ بالبحث عن قبَّعتي الحمراء . كانت القبّعة في الخزانة وقد غطّاها الغبار وتركت عليها الفئران آثار قوائمها الضئيلة . نظّفت قبّعتي النظامية بالفرشاة تحت نور شمس الصباح . وكانت حمائم رئيس المحطة تطلق الهديل من برجها . وخلف المحطّة كانت تبدو كلّ عوائق ميدان السباق ، وميدان سباق «الغران بري دو باردوبيس» المصغَّر بأكمله ، ذلك أن الأمير كينسكي كان يربي خيول السباق ، الخيول الأصيلة التي ربح بها ما هو أفضل من جائزة باردوبيس الكبرى ، أعني جائزة ليفربول الكبرى ، وتبلغ قيمتها نحو مليون جنيه استرليني ، وكان هذا المبلغ هائلاً في ذلك الوقت ، فشرع الأمير في بناء دار للسينما ضخمة خلف محطتنا الصغيرة ، ومبنىً للمسرح وصالةً للحفلات الموسيقية تقدمةً منه للبلدة ، ولكنّه لم يُنهِ أبداً أعمال البناء ، وحُوِّل المسرح إلى أهراء للحبوب هو أجمل إهراءات الحبوب في العالم ، إذ يصل الناس إليه عبر مدخل تقوم على جانبيه أعمدة إغريقية رومانية . وكان لهذا الإهراء إسم إنكليزيّ : فقد كان يُسمّى «ليفربول» .

عند السابعة والنصف تماماً دخل رئيس المحطّة إلى مكتب

المحطة. كان يزنُ نحو كنتال (*) ولكنّه، على ما ترويه النساء، يرقص برشاقة لا توصف. كان يسرِّحُ شعره بردِّهِ شعر الجهة اليسرى على الجهة اليُمنى، ليغطي صلعه، وانطلاقاً من أذنه، فوق صلعته أيضاً، بردّه شعرَ الجهة اليُمنى على الجهة المقابلة. وما أن يصعد إلى رصيف المحطّة، كانت أقلّ النسيمات ترجُّ القوس القوطيّة لذؤابته الهزيلة وتطيّرها.

فتح باب مكتبه. ولم يكن ليخطر على بال أحد أنّ مكتب رئيس محطة صغيرة كهذه يمتلك مكتباً مؤثّثاً بمثل هذا الأثاث الفاخر. كانت السجّادة الفارسية تتألّق بورودها الحمراء والزرقاء، أما المناضد التركيّة الثلاث فكانت تضاعف من هذه النكهة الشرقية. وعلى مكتبه الضخم، المُطعَّم بالأكاجو، تتمايل نخلة عملاقة فتشكل سعفاتها المروحيّة نوعاً من المظلّة فوق الكنبة المصنوعة في البندقيّة. حين يدخل واحدنا إلى هذا المكتب يُخيّل إليه أنّه سيُحمل على كرسيّ يرفعه حمّالون، إلى جانب رئيس المحطّة، وكأنه الحبر الأعظم. وهناك أيضاً ساعة حائط رخاميّة فوق خزانة صغيرة مزخرفة، لها بدل الرّقاص ثلاث كراتٍ مذهّبة تدور في اتجاه ثمّ لا تلبث ان تدور في الاتجاه المعاكس، ومن يسمع دقّة هذه الساعة يلتفت ويقول: يا لهذه الدقّة الجيّدة! وكان في المكتب أيضاً كنبة مماثلة لما يوجد في الادارات عادةً، وهي من القماش المشمّع بلون الشوكولا، وعلى الحائط لوحة تصوّر قاطرة سريعة لحظة خروجها من محطّة ويلسون (*) مُطلقةً بُخاراً على خطوط

(*) أي ٢٥٠ كلغ.

(*) المحطّة الرئيسة في براغ.

السكّة وفي الأجواء ومنطلقةً في عُباب هذه السحابة، إنها صورة عزيزة على قلب كلّ مُستخدم في سكك حديد الدولة، وبشكل خاص، على قلب رئيس محطتنا الذي كان له هدفان في حياته ـ أن يُعينَّ مُفتّشاً في سكك حديد الدولة وأن يحمل إسماً مميَّزاً. السيّد البارون لانسكي دولاروز. ذلك أنّه في معرض أبحاثه في شجرة نسبه وَجدَ أنّه يحمل قليلاً من الدم الأزرق في عروقه. وهكذا يكون امتلك هذه الميزة مرتين بما أنَّه يُقالُ أنّ عمّال السكك الحديد هم من النبالة الزرقاء.

فيما عدا ذلك، فإنَّ رئيس المحطّة كان يُبدي شغفاً ـ دون أن يحيد عن كونه شغفاً عاديّاً ـ بتربية الحمام. فقد كان يُربّي قبل الحرب حمام نورمبرغ وباغديه، تلك الحمائم الصغيرة التي لها سِهام عدوانية سوداء وبيضاء على الجناحين، ويذهب بنفسه، كلَّ يومين، لتنظيف تمرادها واستبدال المياه والحبوب. ولكنْ حين اجتاح الألمان بولونيا ترك رئيس المحطة التمراد مُقفلاً وقبل أن يُغادر إلى «هرادك» أمر مساعده بخنق كلّ حمائم النورمبرغ هذه. وبعد أسبوع عاد واحضر معه حماماً بولونيّاً، حمام الوشق الذي يتميّز بحوصلة جميلة زرقاء وجناحين رائعين مزيَّنين بمثلّثات رمادية وبيضاء مُتشابكة مثل مربّعات غرفة الحمّام.

كنت واقفاً بين الخطوط الحديديّة أشعر بأنَّ ثمّة مَن يُراقبني. فاستدرت ورأيتُ من خلال النافذة المفتوحة، عيني زوجة رئيس المحطّة التي كانت تطعم وزّة وترمقني بنظراتها. كنتُ أحبُّ السيّدة لانسكي كثيراً فقد كانت تقضي السهرة معنا بطيبة خاطر، في

المكتب ، تحوك غطاء طاولةٍ كبيراً من الكروشيه ، وكانت جلستها بيننا تُشيع الارتياح ومن بين أصابعها تنبثق باستمرار ورود أخرى وعصافير أخرى وتضع أمامها على طاولة التلغراف كتاباً تنكبُّ عليه بين الحين والآخر لأيّ خيط تنتقي وكيف تستخدمه ، حتّى يكاد من يراها يحسب أنها عازفة أرغن تفكّ رموز مقطوعة موسيقية . كانت تذبح أرنباً كلّ يوم جمعة . تذهب إلى القفص وتحضر أرنباً تضعه بين ركبتيها وتمرّر على رقبته نصل سكين غير مسنون وتدع الحيوان ينزف دمه وهو يصيح ، ويصيح طويلاً ، حتّى يخور صوته الضامر ، وزوجة الرئيس في الأثناءِ تحافظ على نفس الملامح التي كنّا نلمحها على وجهها وهي تطرّز غطاء الطاولة الكبير . كانت تقول أن لحم الأرنب الذي يُذبَح كما يجب أشهى بكثير وأكثر طراوة . كنت أعرف مُسبقاً كيف ستذبح هذه الوزّة . سوف تقرفص فوق الطير ممسكة به بين ساقيها وتُطبق منقاره البرتقالي بإصبعيها وتُخفِضُه لِصْقَ الحوصلة ، تماماً كما يُطوى نصلَ المطواة ، ثمّ ستعمد إلى إنتزاع ريشة من أعلى الرأس ، بعناية ، وبعد ذلك يسيل الدم بطيئاً في الوعاء ، وعندما يتهالك جسم الطير ويتراخى ، ستخفض السيّدة لانسكي جلستها أكثر فأكثر حتى تسند مؤخرتها على عقبيها .

ـ أيُّها المتمرِّن «هرما» ! نادى رئيس المحطّة .

أدخلُ إلى المكتب ، أحيّي وأقف متأهّباً .

ـ المتمرِّن هرما يستأنف الخدمة !

ـ اجلس ، قال رئيس المحطّة .

نهـض من وراء مكتبـه وحَطّت سعفـةٌ على رأسـه مكث لبـرهـة يتفحصني ، عينـاه المحزونتـان تحدّقـان في بزّتي ، ثمَّ أكمـل تـزريـر ياقتي .

ـ إذن ، يا هرما ، هل لاحظت أنّه لم يعد لدينا عاملة تلغراف ؟

ـ زدنيكا لانج ؟ قلتُ .

ـ أنت تتحدَّث عن ملاك ! زفر رئيس المحطّة . ولكنَّك لم تسمع شيئاً ممّا يُقال في البلدة ؟

ـ لا . ما الأمر ؟

ـ أمرٌ غريب . تكـاد تنظَّمُ رحـلات سياحيـة بتكاليف مخفّضـة للتفـرُّج على صـديقنا «هـوبيكا» ! كـما لـو أنّـه من ذوات الأربـع ! وبرأسين . لقد تسبَّب بسُمعةٍ لا بأس بها لمحطتنا الهادئة ! يـا له من عمل !

ـ لا أعجبُ من شيءٍ يصدر عن السيّد هوبيكا ، قلتُ . فعنـدما كنتُ لا أزال متمـرّناً في دوبـروفيس وكـان السيّـد هـوبيكـا مسؤولاً عنّي ، كان عاملو الخط جميعهم يـأتون للتفـرّج عليه . . . وليعلمـوا أخيـراً كيف استـطاع أن يفـزر كنبـة رئيس المحـطّة في رفقـة سيـدةٍ ما . . .

ـ كنبة غساويّة من القماش المشمَّع ؟ سأل رئيس المحـطة جاحظ العينين ، مثل هذه ؟

ـ هي نفسها ، بالضبط .

ـ ميلوش ، إجلس .

عـادت مـلامـح الـرقّـة إلى وجـه الـرئيس . وجلس بـدوره ، مُفَرْشِخاً على منضدة ووضع يده في شكلِ قمعٍ على أذنه .

ـ «كان آخر قطارات الليل البطيئة قد غادر المحـطّة» ، همستُ في أذن رئيس المحطّة . «وكنّا قضينـا السهرة في رفقـة فتاة جميلة وبـالغة الأناقة تدخّن السجائر وتحتسي النبيذ . ونحـو منتصف الليل ، قـال لي السيّد هوبيكا : أنت لست سوى مـوظّف متمرّن ، يـا ميلوش ، ولكنني أثق بك . سوف تنوب عنّي لساعةٍ أو اثنتين . وهكذا مكثت في الخدمة في مكتب المحطّة فيما اصطحب السيّد هوبيكا السيّـدة إلى مكتب الرئيس . أمّا أنا فألصقت أذني بالباب وأصغيت : يا حبّي ، إنّه لذيذ ، الجسم في حاجة إليه . . .

ـ الجلد الأشعر المنتوف لخنزير . . .

نهض رئيس المحطّة ونظر عبر النـافـذة ، أبعد من الحمـائم التي كـانت ترخي اعنـاقهـا وتهـدل ، نحـو الـرصيف حيث كـان السيـد هوبيكا واقفاً .

ـ فقط لو كانت تبدو على ملامحه ، طباع نكّاح النساء هذا ! زعق رئيس المحطّة ، وأدخَل السيّد هوبيكا إصبعاً في إحـدى أذنيه وأخـذ يرجّها بعنف ، كما لو هناك ماء في تلك الأذن .

ـ إن أسوأ المياه هي المياه الراكدة . قلتُ بنباهـة . عند الـواحدة بعـد منتصف الليـل وصـل قـطار محمّـل بـالسكّـر ، وكنت لا أزال أصغي . وعنـدئـذ سمعت جلبةً في مكتب الـرئيس، جلبـة تشبه الصـوت الـذي يحـدثـه كشط التـابـوت . . . ثمّ سمعت رضّـة !

فهرعت إلى داخل مكتب الرئيس ولو تعلم ماذا رأيت ؟ كانت السيدة مستلقيةً وهي عارية تماماً على الكنبة ، ممدَّدة على ظهرها فاتحة ساقيها ، هكذا ! وكان السيّد هوبيكا على الأرض ، بلباسه الداخلي ، مثل جندي كنيستنا يوم فُتح قبرُ سيِّدنا المسيح . وقال لي ، لقد فاتني هدف البليار المزدوج يا ميلوش ! لقد وقعتُ عن مذبح الغرام . . .

ـ يا للثعلب المخّاط ! صرخ رئيس المحطّة .

اسند جذعه بيديه على إطار النافذة ، مُحدّقاً في السيد هوبيكا الذي كان يقف على الرصيف ، مُنتصباً على ساقيه المنفرجتين يتأمّل في السماء .

ـ وكيف كانت مستلقية على كنبة رئيس المحطة ، تلك العاهرة ، كيف ؟ زعق رئيس المحطة .

ـ لو سمحت ، سأُريك كيف ، قلتُ له وأنا أشير إلى الكنبة ذات القماش المشمّع وقفزتُ في شبه قفزة الموت وهويتُ على ظهري . فانحنى عليَّ رئيس المحطّة متوعّداً .

ـ إذا كان يريد أن يتمرَّغ على هذا النحو مع البغايا ، فليفعل ذلك في ردهة الانتظار ، وليس على كنبة الرئيس !

ـ ذلك أنّ رئيس المحطّة وحده يحق له أن يجلس على كنبة رئيس المحطة ! قلتُ .

فصرخ ـ «أنت تدرك ذلك ، ولكن ما من مقدسات بالنسبة لهـذا الخنزير الخنّوص» !

فجلستُ وقلت : «ولكنْ ، أيّها الرئيس ، ليس هـذا كلّ شيء ، أنظر» ! أمسكت كمّ رئيس المحطة وجذبته لأريه الكنبة . «أتَـرى ، هنـا ، في هذا المكـان بالـذات ، كـانت القمـاشـة المشمعـة ممـزّقـة بالعَرْض . . . » .

ـ مزَّقا الكنبة ! صرخ رئيس المحطّة .

كنبـة رئيس المحطّة بـاتت ممزَّقـة ! من وسَطهـا ! وكـل هـذا لأنَّ الناس لم تعد تؤمن بشيء . لا بالله ولا بالأساطير ولا بالخرافات ولا بالرموز ! بتنا وحيـدِيْن في العالم ، إذن كـل شيء بات مبـاحاً . أنـا لست في عدادهم ! أنا أؤمن بالله . ولكن لجلد الخنّوص هـذا ليس هناك سوى شواء الخنزير ومَرَق القدير والكرْنبْ . . .

ما عاد رئيس المحطّة يقوى على الكلام ، إذ كان ينفخ ويشخر ، وعيناه مسمّرتان نحو الرصيف ، على ظهر السيّد هوبيكا .

ثمّ قال بعد هنيهة :

ـ «إنه شيطان . ذاك صبيّ كان باستطاعته أن يصبح ، منذ عشر سنـوات ، رئيس محطة من محـطات الخط الواحـد الصغيـرة ، وحتى الآن لم يحظ ولو بنجمةٍ واحدة . فما أن يُتَّخذ قرارٌ بتـرقيته حتى يجـد أسهل وسيلة لإثارة فضيحة ، بينما أنا أواصل تقـدّمي في السلك كما ترى» .

فقلتُ له :

ـ علمتُ بأنَّه سيتم تعيينك مُفتشاً لسكك حديد الدولة .

ـ هذا صحيح .

فزعقتُ مُغتبطاً :

ـ إذن سيكون لديك نجمة واحدة كبيرة مع كَتِفيّة بدل النجوم الثلاث الصغيرة !

ـ عينْ الصواب ، يا ميلوش ـ ثمَّ أصبح المفتش ساهماً ـ سوف أُريك نموذجاً عنها ، قال الرئيس وهو يفتح الخزانة ويتناول منها سترةً جديدة خيطت عليها كتفيّتان مزينتان بنجمتين الماسيّتين . لو يُحتذى مسلكي مثالاً ، ولكن قد يُقال أن مَثَلي مَثَلُ من يرمي الجواهرَ إلى الخنازير .

قلتُ : ـ إنَّ مفتش السكة الحديد نظير «القومندان» في الجيش ، أليس كذلك ؟

ـ بالضبط ، يا ميلوش . قال رئيس المحطّة .

كان قطار بضائع طويل على الخط الأوَّل ، يتقدّم بأقصى سرعته فترتطم العربات بوَصْلاتها ، بضربات قويّة ومنتظمة فتحدث جلبةً كبيرة . وكان رئيس المحطة يطوي بإعجاب أطراف السترة وكمّيها ، ويحرص على أن لا يدعكها . ثمَّ ذهب لإحضار علبة الحبوب وفتح النافذة فدخلت الحمامات إلى المكتب وهي تتخاصم في طيرانها وتتنازعُ فيما بينها لتحط على كتفه وفي النهاية اتسعت الكتف لها

كلّهـا ، جاثمـة على كتف رئيس المحـطة وكأنها فـوق نصب أو فوق نـافورة مـاء ، تنحني وتحشر أبدانها الصغيـرة بـه ولم تكن تبـالي حتّى بالحبوب ، ذلك أنّ مودّته نحوها تعني لها أكثر بكثير ، فكـانت تنقد له وجهه ، ولكن بـرقّة ، كـما يفعل الأطفـال الصغار . وكـان قطار المسـاء ابتعد ومعه ضجيجه . ذاك الضجيـج الذي يـرافق القطارات العابرة أينما ذهبت ، كما تـرافق مربّعـات النوافـذ ومثلثاتهـا اللامعـة قطارات المساء في زمنِ السلم .

ـ ولكن ما الذي قد يفعله السيّد هوبيكا مع زدينا ؟ سألتُ .

ـ دناءات ، أجابني رئيس المحطّة وابتسم ومطَّ شفتيه المـزمومتـين إلى الحمامات . حتّى البهيمة لا تقترف ما اقترفـه الوغـد ! ولكنّي يا ميلوش لن أعــود واستسلم للغضب من أجـل هــذا ، إنَّ المجلس التـأديبي في هراديـك يهتمّ بالقضيّـة . باختصـار ، كان هـوبيكـا في ورديّة الليل مع زدينا فَقَلبها ورفع تنورتها وختمَ عـلى مؤخرتهـا بختم المحـطّة ، حتّى أنّه لم ينس ختم التـاريخ . وفي صبـاح اليـوم التـالي عادت عاملة تلغرافنا المسكينة ورأت والدتها الأختام ، وهرعت إلينا وأرادت أن تـرفع شكـوى إلى الغستابـو . فكنتُ مجبـراً عـلى القيـام بتحقيق إداري ورفعت التقرير ! يا للفظاعـة ! فقد استـدعيت زدينا إلى مركز الإدارة حيث كشف مدير سكك حديد الدولة شخصيّاً على الأختـام . يـا للفضيحـة ! زَعَق رئيس المحـطّة ففــزعت الحمـائم وانـزلقت على ذراعيـه الممدودتـين وصفّقت بـأجنحتهـا كي لا تفقـد توازنها .

ولكنْ هنـاك ، في الناحيـة الأخـرى ، كـانت السيّـدة كنسكي ، عائدةً من المزارع ، تمتطي مهراً أسود يعـدو بها خَبَبَـاً بمحاذاة سيـاج المحـطّة ، وكـانت السيّـدة كنسكي والمهـر الأسـود يبـدوان كجسمٍ واحد . خرج رئيس المحطّة إلى الرصيف مصحوباً بحمائمه ، وحيّا السيّـدة الكونتيسّـة التي كانت تعبـر في جواره فـاجتازت الكـونتيسـة الخـطوط واتجهت بالمهـر إلى مـدخـل المحـطّة ثمَّ تـرجّلت بقـدر من الـرشاقـة حتّى أن بنطالهـا المصنوع من جلد الخيـول لامس بـالكـاد السرج الجلدي ، فقبَّل رئيس المحطّة يدهـا وسار إلى جـانبها بضـع خـطوات والحمـامـات لا تـزال عـلى كتفـه دون أن تبـدي السيّـدة الكونتيسة أيّة دهشة وكأنّه أمر بديهي ما تفعله هذه الحمامات ومدَّت لها يدها الرقيقة المقفّزة وتابعت حديثها مع رئيس المحطّة .

عنـدئذٍ ، كـان باستـطاعة السيّـد هوبيكـا أن يثبّت نظراتـه عـلى السيدة الكونتيسة .

ـ أتعلم ما أشتهي أن أكون ، يا ميلوش ؟ أودّ لو أكون محلّ هذا السـرج وأشـار إلى المهـر الأسـود وبصق ، وابتسم وأضـاف بنبـرة حميمية : «لقد رأيت حلماً جميلاً يا ميلوش . لقد حلمتُ بأنني عَـرَبة وأن السيـدة الكونتيسـة تمسك بمقبض دفّتي وتقـودني إلى الليفربـول» ومن جـديد ، عـاد ورمق الكونتيسّـة بنظراتـه الوقحـة ، وحـدَّق في سـاقيها خـاصةً فيـما كانت تبتعـد برفقـة رئيس المحـطة نحـو إهـراء الحبـوب ، الليفربـول ، وانتفض رئيس المحطّة ممـا كـان يسمعـه ، بالتأكيد ، من فم الكونتيسّة ، وكانت حركته مفاجئة حتّى أن الطيور على كتفه فَزِعت وطارت في اتجاهات مختلفة . ومدّت لـه الكونتيسّـة

يدها التي قبّلها بوقار ، ثمّ أراد أن يساعدها على وضع قدميها في الركاب ، ولكنّ الكونتيسة ردعته بحركةٍ من يدها وامتطت صهوة المهر بقفزة واحدة ، وانفرجت ساقاها لبرهة خاطفة فمسح السيّد هوبيكا على فمه وأعلن :

ـ هو ذا ما أسمّيه كَفَلاً جميلاً ! وَبصَق .

كانت السيّدة الكونتيسة تعدو على مهرها وتبتعد على طريق القصر ، والمهر يبدو ظلّاً واضحاً فوق الثلوج التي تلتمع تحت الشمس الزهريّة . كان السيّد هوبيكا يقسّم النساء إلى فئتين : فئة اللواتي حظين بتكوين أفضل ما تحت الزنّار ، فيسمّيهن ، على غرار السيّدة الكونتيسة ، الأكفال الجميلة ، أو الأرداف الجميلة . وفئة اللواتي حظين بمؤهلاتٍ ما فوق الزنّار ، ويمتلكن صدراً جميلاً فكان يسميهن النُحُور الجميلة ، أو اللبّات الجميلات ، كما يُقالُ عن الفرس أو البقرة .

وصل رئيس المحطّة إلى باب المحطّة راكضاً ، تبدو عليه علائم الغيظ :

ـ هوبيكا ، حتّى السيّدة الكونتيسة تعلم بالأمر !

واستدار داخل إطار الباب وهزّ برأسه وعلى وجهه ملامح الرصانة وصعد السلّم ودخل إلى المطبخ حيث أخذ يضرب الأرضيّة بواسطة كرسيّ وكان ضربه عنيفاً حتّى بدأ جبس سقف المكتب يفتّ ويتساقط . ثمّ راح يزعق نحو فناء التهوية :

ـ إنها لعنة عصر الشبق ! كل شيء بات مبالغاً في شبقه ! أينما كنت لا ترى سوى المثيرات الجنسيّة ! مراهقون وصبيان يتولّهون بغرام مُرَبّيات الأوزّ ! القراءات وأفلام الإثارة تؤدّي إلى مآسٍ غراميّة ! فليُشهَّرُ بالكتاب والمربّين وباعة الكتب والصور البورنوغرافية الفاضحة ! يجب أن نضع حدّاً لمخيلة الشبان الفظيعة ! لقد قطع جثة بائعة الأجبان إرباً إرباً وكان باستطاعته أن يقطّع جثة إبنة عمه لو أتيح له ذلك ! العطّار يعرض في واجهة دكّانه مانوكان في حجم إمرأة، عاري الردفين فيتدافع الشبّان للتفرّج بلا حياء ! وحين يدخل واحدنا إلى محترف رسام يُخيّل إليه أنه في حانوت جزار يبيع اللحم البشري . إنها فظاعات آكلة لحوم البشر . تستطيع أن تجد الـ «فرانسكا» في حقيبة ومن يبحث عن رجل أشقر بسنٍّ ذهبية . قبل الجريمة اشترى لها تفاحاً أوسترالياً من كافيتريا «لاكورون» . هيّا ! لا شيء سوى اللحم ! أرى جرائم ترتكب بدافع الغُلمة ! وعلى مقعد المتهمين يجلس الأساتذة الذين يتسامحون مع التربية الجنسيّة . كلّما تعاظمت الميول اللاأخلاقية وحس الاستمتاع ، ازداد عدد النعوش وتضاءل عدد المهود ! هكذا كان يزعق رئيس المحطّة في الطابق الأوّل وهو يخاطب ، من خلال فناء التهوية ، مكتب المحطّة .

ذلك أن رئيس المحطّة كان عضواً في «ج . ت . أ» ، جمعية تطهير الأخلاق ، ومقرّها في براغ ، ومن ناحية أخرى ، كانت السيّدة الكونتيسة ، حين تحجز مقطورات لنقل البهائم إلى المسلخ ، غالباً ما توجّه إليه اللومَ لكونه لا يتشدّد كفايةً فيما يتعلّق بالإيمان ،

ذلك أنّه يوم تنهار الكنيسة الكاثوليكية فالعالم كلّه سينهار . وكان رئيس المحطة لا يفوته أن يؤدّي التحيّة كلّما مرّ بكنيسة ، يؤدي التحيّة العسكرية إذا كان مرتدياً البزّة ، أمّا حين يصادف أن يكون مرتدياً ثيابه المدنية فيرفع قبعته التيروليّة وينحني . يغمغمُ بصوت خفيض ، ويتحدَّث إلى تلك الكنيسة .



طقطقت مجموعة المكابح وأخذت اللمبـة الحمراء الصغيـرة تغمز ثمَّ تحوَّل لونها إلى الأبيض ، فسحبت مفتاح المجموعـة وخرجت إلى الرصيف ووقفت تحت السقيفة المائلة ، كانت القـاطرة تصفُـر لحظة دخـولها إلى المحـطّة ورئيس المحـطّة يهبط السلّم كـما لـو أنَّ شيئـاً لم يحدث ، وكأنه تطهّر لكثرة ما زعق في فناء التهوية كـما لو أنّـه حائط مبكى ، ذلك الفناء . كان لزوجته ، كما يروي هوبيكا ، الحق بمثل هذا الزعيق ، هي أيضاً ، وكانت تدعه يفعل برغم كونها إبنة جزّار من «فولاري» ، ولكنّها كانت تثور ثائرتها أربع مرات في السنة وحين كان رئيس المحطّة يزعق بقوة ويرشق رأسَها بما ينبغي أن تكون عليه إمرأة بمعنى الكلمة ، كانت السيدة لانسكي ترشق رأسَه بكل ما تقع عليه يدها . وذات مرّة ، قبل عيد الميلاد ، حين رأته يزعقُ بصـوت أقـوى مما اعتـادت عليه ، جـرَّته إلى الحمّـام وصفعتـه فـوقـع رئيس المحطّة في المغطس في جوار شبّوط العيد .

دخـل رئيس المحطّة إلى الصـالـة ولاحظ أن الأمـور ليست عـلى يرام .

ـ إذن ، يا صغاري ، قال بلهجة أبويّة ، ما هو الوضع الآن ؟

ـ كانَ جندي يرافقنا عند منصّة الوصول ، قال هوبيكا بشيء من الامتعاض .

ـ القطار العسكري الموضوع تحت الحراسة الخاصة ؟ قال رئيس المحطة جاحظاً عينيه .

ـ واحد مع ثلاث علامات تعجّب ، قلتُ .

ـ هل قرأتما هذا ؟ قال الرئيس وهو يشير إلى بلاغٍ مذيّلٍ بتوقيع مفوّض الرايخ .

ـ أجل ، قال هوبيكا .

ـ وهل فكّرتما في الأمر ؟

ـ لقد فكرنا وقرّرنا وانتهى الأمر ، قال هوبيكا مبتسماً .

ـ ولكن قد يُعتبر هذا عملية تخريب ، قال رئيس المحطة قبل أن يخرج إلى الرصيف .

في قاطرةِ القطار العسكري تحت الحراسة المشدَّدة كان يقف ، شاحباً مثل بياضة ، المهندس هونزيك ، رئيس فريق الجرّ ، الذي ذهب إلى «ليبوخ» لإحضار هذا القطار بنفسه . كان يقف هناك رهيناً ، ينظر أمامه بثبات ويضمّ يديه ، يقفُ جاثماً بثقله على كوة القاطرة الصغيرة ، ويشيرُ بيديه نحو نوافذ المحطة وبابها لكي يُظهر لنا بوضوح كم يعاني بسبب محطتنا الصغيرة .

أدّى رئيس المحطّة التحيّة العسكرية ، فيما توجّهتُ ، أنا ، إلى

ناحية الخطوط وحيّيتُ بدوري . توقفت القاطرة وترجّل منها إثنان من جنود الـ «أس . أس» ممشوقا القامة وفي يدِ كلٍّ منهما مسدّس برابلّوم ، وتفحّصا بأنظارهما للحظة قبّعتي الحمراء . فَرْقَعْتُ عقبيَّ وأدّيت التحيّة العسكريّة ، ولكنَّ عسكريّي الـ «أس . أس» إقتربا ، أحدهما إلى يساري والآخر إلى يميني ، ووضعا فوهتي سلاحيهما الأوتوماتكيين عند منبتَ رئتَيَّ واجبراني ، على تسلّق سلّم القاطرة وبدأ القطار بالمسير . أما أنا فبدا لي الأمرُ طريفاً ، برفقة هذين الجنديين الجميلين اللذين يتخيّل المرء أنه يليق بهما أكثر بكثير أن ينصرفا إلى كتابة القصائد أو الذهاب لممارسة لعبة التنس ، ولكنّهما كانا معي في تلك القاطرة ، وكان المهندس هونزيك برفقة آمر القطار ، وهو نقيب في الشرطة يرتدي الكسكيت الجبلية النمساوية ، ويحمل على وجهه ندبة طويلة تحيط بالفم وتمتدُّ حتّى أسفل الذقن ثمَّ الرقبة ، والسائق أيضاً الذي يرتدي البزّة النظامية كان ممسكاً بعتلة السرعات ويجلس على مقعدٍ محشوّ بالخرق ؛ كانت قاطرة ألمانية تُسيَّر بفحم الانتراسيت ، وبجوار مقعد السائق عتلة تشبه المقبض الذي نراه عادةً على كراسي المقعدين التي يمكن تحويلها . وكان عنصرا الـ «أس . أس» يمسكان بمسدسيهما البرابلّوم مصوّبين إلى منبت رئتيَّ، وعيناهما اللتان تشبهان فوهتي سلاحيهما، كانتا مثبّتتين على نقيب الشرطة الذي يتأمل المنظر . عند المباني القريبة رأيت شخصاً يَفتح باب كوة ويصعد إلى سقف التوتياء ، مدفوعاً بفضوله ، ثمَّ رأيته يرفع يديه وكأنّه يستسلم . فصرخ عليه أحد الذين يستقلّون القطار أو صوّب أحدهم سلاحه باتجاهه. كان

واقفاً على السطح رافعاً يديه كما لو أنـه يشربُ نخب الشمس ، إنَّـه يوردان ، أبله البلدة الذي يرعى البقرات ويضع بعد ظهـر كل يـوم أحد قنينة بيرة في شُبيكة صيد ويذهب للنزهة عـلى متن قارب وبـين برهـة وأخـرى يسكب لنفسه قـدح بيـرة مثلّجـة ، ثمَّ يقف وسط القـارب ، كما كـان يقف عـلى سقيفـة التـوتيـاء ، يقف إذن وسط القـارب ويرفـع ذراعيـه ويشـرب نخب الشمس ، كـان يبتهـل إلى الشمس ويصـرخ إيه ! إيـه ! إيه ! ثمَّ يفـرغ كأس البيـرة بجـرعـة واحدة . ورأيتُ أيضاً السيّدة لانسكي خَلْف نافـذة المطبـخ ، وكان يفصـل بين عينيهـا قضيب الـواجهـة النحـاسي الـذي عُلِّقت عليـه الستائر الصغيرة ، فرفعت يدها ، ثمَّ سارت القاطرة الموضوعة تحت الحراسة الخاصة بمحاذاة المقطورة المنخورة بالرصاص والمـركونـة منذ وقتٍ على الخط الخامس ، فـالتفتُّ لأرى ما قـد يبدر عن عسكـريّي الـ «أس . أس» ، فكانا ينظران إليّ وكأني أنـا مَن أطلق الرصـاص على هذا القطار .

ـ لاحِسُ أقفية ! قال أحد عُنصري الـ أس . أس .

ـ وغـد مثل هـذا ، من الأفضل أن نقتله فـوراً ، قـال الآخـر . ثـلاثون دقيقـة من التأخـير ، أردف الأوَّل ، ولكزني بقـوة بمـاسـورة مسدسه البرابلّوم بين أضلاعي .

كم كـان الأمر مختلفـاً منذ ثـلاثة أشهـر ، حين ذهبتُ طـوعاً إلى حافة المـوت ، انحنيت على الصنـدوق ، كان المسـاء وكانت عـاملة الصندوق صهباء . تذكرة ، قلتُ . فعرفتني وقالت : ولكن إلى أين

يـا سيّـد ؟ قلـتُ : إلى هنـاك حيث تنـظر عينـاك لأوّل مـرّة . فضحكت ضحكة متكلّفة : كيف هذا ، لأوّل مرّة ؟ التـذاكر أمـام عيني طوال النهار ، تـذاكر سكّـة الحديـد هذه ! قلتُ : إسمعي يـا آنسـة أنظري في وجهي واسحبي تـذكـرة بـاليـد اليسـرى ، كـانت تضحك هازئة . بالله عليكِ ، أستطيـع أن أبيع التـذاكر في العتمـة الكاملة . وكانت تضحك لأنها تحسبُ أنني امازحهـا . عندئـذ قلت لهـا : الصفّ السابـع ، الخانـة السـابعـة ، الـرقم سبعـة كـما عنـد اليهود . فمدّت يدها دون أن تخفض انظارها عني . إذن هي تذكرة ذهاب إلى بيستريس في بينيسوف وثمنها ثمانية وعشرون كوروناً .

كـانت القاطـرة تهتزّ ، وعـلى مدى أنـظارنا يُحـدث ذوبان الثلوج تكّاتها المعتادة من لُبّ البلوّرات الملوّنة . وفي حفرةٍ ثلاثة جياد نـافقة كان الألمان رموها من العربة أثناء الليل . فقط فتحـوا الباب ورمـوا الجيف ورأيناها ممـدّدة في الحفرة الـطويلة بمحاذاة السكـة ، قوائمهـا مرفوعة في الفضاء كأنها أعمدة تسند بوّابة السماء غـير المرئيـة : كان المهنـدس هونـزيك ينـظر إلي وتمتلىء عينـاهُ كآبـةً وحقداً ، لأنَّ هـذا القـطار المصحوب بحـراسة خـاصة قـد تأخّـر في قطاعـه . وكـانت غلطتي أنا بالتأكيد فمن الـطبيعي إذن أن يجبرني هـذان العسكريـان عـلى الصعود إلى القـاطرة ولا غـاية لهـما سـوى أن يغـرزا مـاسـورة مسـدسيهما البـرابلّوم في قفا رقبتي وأن يضغـطا ، بعد إشـارة ، على الزناد فينخـرني الرصـاص ثمّ يفتحـا البـاب . . . هذا بـالضبط ما كنت احسّ به ، وفي نفس الوقت كنت احدّث نفسي قائلاً إنّهما غـير جـادّين بما يفعـلانه ، وإنّهما غـير قـادرين عـلى القيـام بـذلـك لأنهما

شخصان وسيمان جـداً ، ولأنني لم أستطع في حيـاتي ، إزاء من هم بمثل هذا الجمال ، أن اتلفَّظ بعبارة واحـدة لها معنى . كنتُ اتصبَّبُ عرقاً وأتلعثم ، مأخوذاً بالوجوه الجميلة لدرجة أنها كانت تسحرني ، ولم أستطع ، في حياتي ، أن أنظر مباشرةً إلى وجه جميل .

كـان نقيب الشرطة ، في المقابـل ، رجلاً دميماً . فهذه النـدبـة الـطويلة التي تسمُ وجهه ، كـما لو أنّـه وقع في طفـولته ، واصـطدم وجهه بآنية صدئة ، ورأيت أن نقيب الشرطة هذا ينظر إليّ . رفعت ذراعي وتشبثت بـالمقبض المتدلّي من سقف القـاطـرة . حسبتُ أنني أستطيع أن أسمح لنفسي بذلـك لأن نقيب الشرطـة ينظر إليّ ويـرى بـوضوح أني لست سـوى كائن مسكـين يُطيـل المكـوث في مـراقبة الخـطوط ، مسكين قيـل له ، هنـاك في الإدارة العليـا في هـراديـك كراكوف ، أن يمكث طويلاً في مراقبة الخـطوط وأن يخفض أو يرفـع مقابض الملوِّحات فيما جيوش الرايخ تتدافع عبر محطته ، في البدايـة نحـو الشرق ، والآن في الاتجـاه المعـاكس ، نحـو الغـرب . وكنت أقول في سرّي أنّ الألمان معتوهون بالتـأكيد . معتـوهون خـطرون . وكنتُ أنا نفسي معتوهاً بعض الشيء ولكنّي أدفع ، أنا نفسي ، ثمن جنـوني فيما الألمـانُ دائماً يجعلون الآخـرين يدفعـون . فما أزال أذكـر قطار نقل الجنود على الخط الخـامس ، ذهب الجنود إلى بقـالة البلدة لشراء لحم الخنزير الموضّب والسكاكر ومكعّبات العسل الصنـاعي ، تناول أحد الجنـود ، خفية ، المكعب الـذي تستقيم عليه المكعّبـات الأخـرى فانهار هـرم العسل الصنـاعي كلّه . عَدَّ البـائع المكعبـات فوجد أن هناك خمسة مكعُّبات مفقودة ، فجمع الضابط فنرقته وقـام

بتفتيش القطار حتّى هبوط الليل بهدف العثـور على مكعبـات العسل الصناعي الخمسة ، وحين لم يعثر عليها ذهب بنفسه إلى البائع فبادره بالتحية وقدَّم له اعتذاراته بطريقة استعراضيّة . . . ربّمـا كانـوا نفس الألمان الذين يرافقونني اللحـظة على متن القـاطرة ، ربّمـا كانـوا هم أنفسهم .

غمز السائق في اتجاهي بحركـة ودّية ، ثمَّ قلَّب الفحم بـرفشه ، وشَـرَع يـرمي الفحمَ في مؤخِّـر مُصبَّـع الفـرن ، ثمَّ في الـوسط ، بحركاتٍ موقَّعة ، حريصاً على أن تكون الجُرافة الأخيـرة على طـرف المُصبَّع . وكانت عينـا نقيب الشرطـة مثبتتين عـلى معصميّ ، حيث أحمِلُ ، أنا أيضاً أثر ندبة ، كان طرف كمّي قد شَمَر قليـلاً والنقيب ينظرْ إلى هذا الجـرح الملتئم ، كما لـو أنه يقـرأ في كتاب . لقـد كان هذا النقيب يعرف ، بالتأكيـد ، أشياء كثيـرة ، وينظر إلى كـل شيء كما لو أنه سبق له أن كان في الناحية الأخرى ، وكانت عيناه تشبهان قـطعتي صوّان . كـانـوا جميعهم منشغلين في تفحّص معصميّ فمـدّ النقيب سوطه وشمَّر عن كميّ الآخر وتفحّص الندبة الأخرى .

ـ أيّها الرفيق ، قال .

وأشار بيده فخفّت سرعة القـطار الموضـوع تحت حراسـة خاصّـة وابتعـدت فوهتـا مسدسي البـرابلّوم عن ظهري ، ولم أعـد أنظر إلى الجنديين الوسيمين ، كـانت عيناي تحـدّقان في سقف القـاطرة ، في اللوحـات المعدنيـة المُحززّة التي لا تكفّ عن الاهتـزاز فيها القـاطـرة تنهبُ السكّة الحديد .

ـ هيّا ، إذهب ، قال النقيب .
ـ شكراً ، قلتُ هامساً .

كنت أتساءل طوال الوقت ما إذا كانت مجرَّد دعابة ، ففتحت الباب ووضعت قدمي على أولى درجات السلّم ثمَّ هبطتُ الدرجات الأخرى ، واحدة تلو الأخرى ، ومددت ساقي فوقعتُ على طرف السكة كما لو كنت أرقصُ الرقصة الروسيّة ، ثمَّ خطوة أخرى وانتصبت واقفاً ، عاوَدَتْ القاطرة سيرها ورأيت عربات النقل المسطحة تعبر أمامي ، واحدة تلو الأخرى ، محمّلةً بدّبابات التايغر ، وعلى جوانبها جنود يحملون في أيديهم علب الطعام المحفوظ سعة كيلوغرام واحد ، كان الجنود شمّروا عن سواعدهم وأخذوا يشكّون قطع اللحم برؤوس حرابهم ويأكلون . أمّا بعضهم الآخر على حافة العربات ، وكانت أسلحتهم الأوتوماتيكيّة مُلقاة على ركبهم ، وسيقانهم المدلاّة تتأرجح وكأنهم يجلسون على ضفة نهر صغير . وكنتُ كلّما عَبَرتْ مقطورة من أمامي ، أشعر بأن ظهري ما زال يُشكّل هدفاً سهلاً للإصابة .

كانت آخر عربات القطار عربة بضائع مفتوحة بلا غطاء ، وكانت تتدلّى منها جوارب نسائية سوداء ، لا بدّ أن تكون مرسلة لبعض الممرّضات في أحد مستشفيات الريف ، أما أنا فكنت لا أزال في مرمى البرابلّوم والمسدسات والرشاشات الألمانيّة ، لأنّ الألمان وبتُّ أعرف ذلك بعد التجربة ، لا يدري أحدٌ بالضبط ما يجول في رؤوسهم . فالسيّدة كراسكوفا ، جارتنا ، اعتقلها الألمان عام ١٩٤٠ ، أي منذ بداية الحرب ، ولم تَعُد إلاّ في العام الماضي ،

يوم عيد الميلاد ، وقضت كلّ هـذا الوقت ، هـذه السنوات الأربـع الطوال ، في معسكرٍ اعتقال بيكارنا حيث كانت تغسـل الدمـاء بعد كل عملية إعدام ، وكان رئيس ثـلّة الجلاّدين لطيفاً معها ، يُعـطيها قِـطعَ «الجامبـون» ويطلب منهـا أن تنشـد لـه أغنيـة «أيّتهـا العينـان السوداوان ، لماذا تبكيان» ويُخاطبهـا بـ «عفواً» و «لـو سمحت» ؟ ثمَّ أطلقوا سراحها وأعادوها إلى بيتها دون سابق إنذار ، ووجّهـوا لها ، فضلاً عن ذلك ، رسـالة اعتـذار ، ولكنَّ السيّدة كـراسكوفـا كانت فقدت صوابها ، فوجدوا لها عملاً في الـ «س . ت . و» في مشاغل التسخين ، وضعوا في يدها مزيتة وباتت الآن تسكب الزيت وتمسح مَدْرجة كريّات الآلات .

اقتـربتُ من منعطف السكّـة ومن بعيـد كنتُ أرى الإثنـي عشـر حافراً للجيـاد النافقـة وهي تنتصب باتجاه السماء فتـذكّرني بـأعمدة مدفن كنيسة القديس بولسلاف . وتذكّرتُ ماشا ، في لقائنا الأوَّل ، يومذاك كنت لا أزال مُستخدماً في الصيانة ، فأعطانا رئيس الورشـة دلـوين من الطلاء الأحمـر وطلب منّـا أن نـطلي السيـاج الـذي يحيط بالمشاغـل . كانت مـاشا لا تـزال مبتدئـة في السكّة الحـديد ، مثـلي تماماً ، وكنا وجهاً لوجه ، يفصل بيننا هذا السياج العالي من الشريط الشـائك ، لكـل منّا دلـوه الخاص المليء بأكسيـد الرصـاص الأحمر والفرشاةْ في اليد ، كنّا نـنظر بثباتٍ أمـامنا مشغلين بِـطَلْي السياج ، كلٌّ من جهته ودائماً متقابلَين وجهاً لوجه ، وكان طول السياج خمسـة كيلومترات ، فأمضينا الوقت يوماً بيوم ، وجهاً لوجه ، طـوال خمسة أشهر وتصارحنـا بكل شيء ، مـاشا وأنـا ، ولكنَّ السياج كـان دائماً

بيننا . ذات يوم وكنّا قد أنجزنا طلاء كيلومترين منه ، طليت السلك الشائك ، بالطلاء الأحمر ، بموازاة شفتي ماشا ، وقلت لها انني احبّها ، وهي ، من جهتها ، كانت تطلي السلك نفسه وقالت لي إنها تحبّني هي أيضاً . . . وكانت تنظر في عينيّ ولمّا كنا حينذاك في حفرة ونباتُ السرمق عالٍ ، قرّبتُ فمي وتبادلنا القبل ، من جِهَتيْ الشريط الشائك المطلي وعندما فتحنا اعيننا كان فمها ملطخاً بالأحمر ، كذلك فمي ، فانفجرنا ضاحكين وبتنا سعداء منذ ذلك الحين .

جلست على بطن أحد الجياد النافقة الثلاثة واسندت رأسي إلى عُرقوبه . كان رأس الجواد الثاني يرمقني بعين جاحظة حتىّ خيّل إليّ أنّ هذا الجواد الميت عايش ما عشته منذ قليل .

إذن ، في ذلك النهار ، ارتقيت بعناء سلّم الفندق الصغير في بستريس بنسوف ؛ وكان أحد البنّائين يعمل عند احدى عقفات السلّم وهو يرتدي بنطالاً وسترة أبيضين ، يثقب الحائط ليثبت فيه دسارين لتعليق انبوب إطفاء حريق من نوع مينيماكس . كان رجلاً متقدّماً في السنّ ، ذلك البنّاء ، ولكنّه عريض البنية قويّها حتىّ أنّه إستدار ليُفسح لي ممرّاً ، وكان يصفر لحن فالس «كونت دو لوكسمبورغ» ، دخلت إلى إحدى الغرف ، كان الوقت صباحاً ، وأخرجت شفرتي حلاقة ، غرزت الأولى على منضدة الحمّام ووضعت الثانية جانباً وشرعت ادندن لحن الفالس «كونت دو لوكسمبورغ» ، خلعتُ ملابسي وفتحت حنفية المياه الساخنة ، ثمّ أطرقتُ مفكّراً وفتحت الباب على مهل . كان البنّاء يقف من

الجهة الثانية للباب ، في الرواق ، كما لو أنه ، هو أيضاً ، فتح هذا الباب لكي يُتاح له أن ينظر إليّ ويرى ماذا أفعل ، كما أردت أن انظر إليه ، أنا أيضاً . صفقت الباب ، وانزلقت عارياً في المغطس ، وكان عليَّ أن أجلس على مهل لأن المياه كانت لاهبة ، أطلقت غمغمة ألم ، فيما أجلس بحذر متألماً . بعد ذلك مددت معصميَّ وقطعت شريان المعصم الأيسر باليد اليمنى ، ثمَّ ضربت معصم اليد اليمنى ، بكل قوّتي ، على حدّ الشفرة المغروزة في المنضدة ، وغطّستُ يديّ الإثنتين في المياه الساخنة ، كنت أرى الدماء تسيلُ ببطء من جسمي ، والمياه تتحوَّل إلى لونٍ زهري ، وكان الدم الأحمر يواصل نزفه متميّزاً عن الماء ، كما لو أن شريطاً مطّاطيّاً أحمر سُحبَ من معصميّ ، أو كأنه سيلٌ غازيٌّ متماوج . . . ثمَّ أحسست أنني أتجمد في المغطس كما تجمّد الطلاء الذي طلينا به سياج الشريط الشائك الذي يزنّر مشاغل سكك حديد الدولة . . . وهوى رأسي على صدري واحسست بطعم صودا الفراولة تسيل في فمي ، ولكنها مالحة الطعم قليلاً . . . وتلك الدوائر المتراكزة الزرقاء والبنفسجية التي تتماوج مثل لوالب متحركة وملوّنة . . . ثمَّ انحنى ظلٌّ عليّ وأحسستُ على وجهي بملمس ذقن غير حليقة خشنة الوبر . لقد كان البنّاء بثياب العمل البيضاء . مرّر ذراعيه تحت جسمي وحملني كسمكة حمراء بزعنفتين حمراوين تنبثقان من معصميّ . أسندتُ رأسي إلى إزاره وسمعتُ وجهي المبلّل يُطفىء الكِلس ، وكان هذا العطر آخر ما أذكره قبل أن أفقد وعيّ .

كنتُ جالساً على الجواد الميت ، متكئاً على إحدى قوائمه المنتصبة نحو السماء ، وفي إستطاعتي أن ألمس حلقة الوبر الخفيف الذي يزنّر أعلى حوافر الجياد . . . كان قطار بضائع يعبُر على السكّة ويُصفر باغتباط . وظلالُ العربات تغطيني ثمَّ تنحسر عنّي بانتظام ، وكان اللعاب يتدفق في فمي ، بدأت الحكاية عند نوغمان العجوز في كارلين ، في تلك الليلة التي قضيتها في منزل عمّ ماشا ، أفردوا لي كَنَبةً في المحترِف وأعطوني غطاءً خفيفاً بالإضافة إلى غطاء سرير سميك كُتِبَ عليه بأحرف ضخمة «براغ» وفوق الكتابة رسم لطائرة صغيرة حيث يأتي الزبائن ويلتقطون صوراً لأنفسهم في زيّ طيّار أو سائح ، مجموعات صغيرة وطريفة تبرز في الصورة مجتمعة وكأنها تتكيء على أطراف هذه الطائرة ، وحين حلّ الظلام وأصبح كلّ شيء ساكناً في منزل آل نوغمان ، لَحِقَتْ بي ماشا ، وانسلّت لصقي تحت الغطاء الذي رُسمت عليه الطائرة وراحت تداعبني ، كانت ملتصقةً بي وكنت أنا أيضاً ، أداعبها ، وأشعر أنني أصبحتُ رجلاً وكنت رجلاً بالفعل حتّى اللحظة الأخيرة ، ولكنْ في اللحظة الأخيرة ذَبلتُ فجأةً ، مثل زنبقة (*) ، وانتهى كل شيء . كانت ماشا تحاول أن تقرصني وكنتُ جامداً مثل حجر مشلولاً من كل أطرافي . . . بعد مضيّ ساعة واحدة رفعت ماشا الغطاء وهربت عائدةً إلى غرفة عمّتها . . . في صباح اليوم التالي لم أقوَ حتّى على النظر في اتجاهها ، كنتُ كمَن سُمِّرَ على كرسيه ، فيما الزبائن يدخلون ويقفون خلف غطاء السرير الذي شهدَ ، وأنا تحته ، في

(*) تعبير شعبي تشيكي يُستخدم للعبارة عن لحظة عجز جنسي عابرة .

الليل ، إحدى أسوأ تجارب حياتي ، يقف الزائرون أحدهم على كرسي والآخر على مرقاة ويضع العمّ نوئمان في يد أحدهم قنينةً وفي يد الآخر قمعاً ، ثمَّ يغطي رأسه بقماشة سوداء أمام آلته ويرفع ذراعه ويشير بيده ، ثمَّ يخرج من تحت القماشة السوداء ويحضر الصورة للزبون بعد انتظار خمس دقائق ، لأنَّ الكتابة فوق باب المدخل جازمة : خمس دقائق من الانتظار فقط . توافد الزبائن طوال النهار ، ثمَّ دخل جنديّان ألمانيان فصعد أحدهم ووقف على الكرسي فيما وقف الآخر على المرقاة وفرد السيد نوئمان أمامهما الغطاء الذي رسمت عليه الطائرة وكُتبت كلمة «براغ» ، ولكنَّ صوتاً هائلاً دوّى واجتاح المحترف مُجْرى هواءٍ عنيف فتطاير الغطاء والطائرة ووقع الجنديان أرضاً وكذلك وقع العمّ الذي كان رأسه لا يزال مغطى بالقماشة السوداء ولكنَّ الأسوأ حدث فيما بعد ، حين هبَّ عصف هواءٍ فظيع فرأيت جدار المحترف يتهدّم ورأيت الجنديين والعمّ يدفعهم العصفُ الذي رمى بالعمّة وبماشا إلى خارج الغرفة ، كانتا تطيران ، كما يطير أي شيء بالفعل ، وهما تحاولان عبثاً الامساك بأطراف تنورتيهما المتطايرتين ، وكان شعرهما ينتصبُ ويتطاير مع الهواء فيحجب عني السماء ، ووقعنا جميعنا على أقفيتنا وتدحرجنا على عشب الجنينة ، على مهلٍ ، كبالونات . . . واقتلع العصفُ اليافطة التي كتب عليها : خمس دقائق من الانتظار فقط . . . عبر بعض الناس الشارع الرئيس ، ثمَّ خيّم السكون ، وبعد ذلك سُمعَ زعيق صفارات الإنذار ، وعبرت سيارات الإسعاف الشارعَ مُسرعةً ، ثمَّ وصل رجال ونساء وقد باتت أثوابهم

خرقاً ، وكانوا يضحكـون ، مشعّثين مسـودّي الوجـوه ، يضحكون مثل أبالسة ولا يتوقفـون عن الضحك ، ثمّ يتهـالكون عـلى أقفيتهم على عشب الجنينة ويمكثون مُستلقين على ظهورهم وأجسادهم تتلوّى من شدّة الضحك . . . ثم اقترب شخص واستدار وأشار بيده نحو فيسوكاني وقال : غارة رهيبة ، يا أصدقاء ! ثمّ التفت صوب الجنينة ورأى اليافطة الكبيرة وردّد بصوت عـالٍ ما كُتبَ عليهـا ولكنّه كـان يعـطي للكلمـات معنى مختلفـاً بعض الشيء : خمس دقـائق من الانتظار فقط . . .

تسلّلت من تحت الحاجز الحديدي . كانت عربات واقفة على سكّة الخط الخامس . وكان القطار كلّه منخوراً بالرصاص ، قرأتُ الكتابة على العربة الأولى : الوجهة ، مشاغل سكك حديد الدولة ، محطة الانطلاق : كركوفيا . كانت الأمور دائماً تجري على هذا المنوال : فالأنصار يعمّدون بالنار القطارات العسكرية الألمانية العابرة خلف خطوط الجبهات ، فلا يَسْلم منها زجاج نافذة واحد في كلّ العربات ، كانت كلّها منخورة بالرصاص ، ورسالة الرشاشات محفورة على الأطر المعدنية ، بعضها قُطِّعَ بالقنابل اليدوية وبعضها الآخر بالمدفع الصغير المحمول أو بقذائف البازوكا التي يستولون عليها من الألمان أنفسهم . كانت العربات أصبحت غير صالحة للإستخدام منذ وقت طويل ، لكل عربة منها بابان ، باب لكل جهة من جهات المقصورة ، ومرقاة على طول الحافة السفلية للعربة . وعلى كلّ باب تقريباً بقعة دماء جافّة . ألقيتُ نظرة داخل إحدى المقصورات ورأيت المشهد الذي يتكرّر فيها كلّها : نثار الزجاج المحطّم يُغطي الأرض ، مسامير ، أزرار منزوعة مع أطراف

قماش، كمّ بزّة عسكرية كامل، سراويل مضرَّجة بالدماء، منديل لا بدّ أنه استخدم لمسح الدماء ، قطع شطرنج مبعثرة ، علبة لألعاب مُلغّزة ، مرآة مستديرة ، أكورديون صغير ، رسائل مغطّاة بحبيبات الثلج ، شريط طويل وكرةٌ مخطّطة . التقطت رسالة ممهورة بمسامير حذاء عسكري . تبدأ الرسالة بـ «حبيبي شنوكي بوكي ! وتنتهي بـ «فتاتك لويز . وبصمةُ شفتي امرأة . وفي إحدى الزوايا ، لمحتُ مداساً عسكريّاً محلول الرّباط ومشدود اللُسينّ يحدِّقُ بي ، وبجانبه غرابين نافقين جاثمين على الأرض . يوم عدتُ من المستشفى كانت موجة جليد شديدة تجتاح البلاد ، حتّى أن أشجار الغابة ، التي تقع خلف بلدتنا وتكثر فيها أسراب الزاغ والغربان ، كانت مغطّاة بالطيور السوداء المتدلّية من الأغصان ؛ كانت الطيور تتلألأ تحت أشعة شمس الصباح الجليدية ، وعند وصولي إلى الغابة رأيت آلاف الغربان المطروحة على الأرض ، ولم أر جذع شجرة واحداً لا تحيط به جثث الغربان ، كانت تشبه الخوخ السلقي لبوزني : غابة مليئة بالطيور الميتة ، والغربان الجاثمة على الأغصان كانت ميتة أيضاً ، إذ تجمّدت أثناء نومها . ضربت بقدمي أحد الجذوع فتساقطت مسلّات الجليد والطيور الميتة عن الأفنان والأغصان ، وبعضها سقط على كتفي إلّا أنها كانت خفيفة جداً كما لو أنَّ أحداً رمى «بيريه» (*) على كتفي .

قفزتُ عن مرقاة العربة الأخيرة للقطار المركون على سكة الخط الخامس وذهبت لأرى ماذا يجري في مكتب المحطّة . كان السيد

(*) بيريه : طاقية صوف مدوّرة ومسطّحة ، لونها أسود .

هوبيكا جالساً وقد رفع قدميه ووضعهما على مكتب التلغراف ، وضمَّ ساعديه إلى صدرهِ ودسَّ كفَّيه تحت الإبطين ، ذقنه يلامس صدره ، وكان السيِّد هوبيكا نائماً . في استطاعتي أن أفعل ذلك أنا أيضاً ، فأنا أيضاً يحدث لي أن أغفو أثناء الخدمة . فجأة تنتابك رغبة في أن تستسلم لكبوة ، رغبةٌ ملحاحة بحيث ترى أنه من الأفضل أن تغتنم أول فرصة لتفعل ذلك . ولكنَّ الكبوة ، كبوة مستخدمي السكة الحديد أثناء الخدمة ، لها نظام إشاراتها الخاص ، يكون الجسد مُستغرقاً تماماً ، ولكنَّ شيئاً ما ، في الرأس ، يظلّ متيقظاً . إذ يكفي أن ترنَّ شارة التلغراف حتَّى يتنبّه مستخدم السكة الحديد الحقيقي فوراً ، فيخفض عتلة الجهاز ، ويعطي إشارة محطته ، ثمَّ يعود إلى جلسته ويغرق من جديد في نوم عميق وحين ينتهي تسجيل الرسالة البرقية على شريط اللاقط الأبيض ، ينهض مُستخدم السكة الحديد ، ويُعلن أنّه فهم ويبث إشارة محطته وهو يدير مفتاح التلغراف ويُطفىء الآلة ، ثمّ يجلس ويستأنف كبوته . أو أن مُستخدم السكة الحديد يضع ملوِّحة الوصول في مكانها ثمَّ ينام ، ولكنّه يسمع خطوات تقترب ، فالقطار دخل المحطة ، وخفَّف من سرعته ، ثمَّ دخلَ إلى خطٍّ معزول ، وعند مَجْمَع التوقف أحدث تكَّةً تكاد تكون غير مسموعة ، كما لو أنّ ملعقة تسقط في فنجان قهوة ، ولكنّ مستخدم السكة الحديد يستيقظ ويذهب ليفتح الخطّ من جديد .

كانت خطوات رئيس المحطة تُسمعْ وهو يهبط السلّم ، فأنزل السيد هوبيكا نعليه عن الطاولة ونهض . دخل الرئيس مرتدياً بزّته

القديمة ، كان ، بالتأكيد ، في طريقه إلى برج الحمام لتنظيفه ، بنطاله أبيض لكثرة ما غطاه روث الحمام ، وكذلك الكمّان .

دخلت بدوري إلى مكتب المحطّة .

ـ المتمرّن هرما ميلوش جاهز للخدمة ! قلتُ .

فلم يلبثا أن هرعا ليشدّا على يدي وربّتا على ظهري ، ورئيس المحطة يقول معاتباً :

ـ ماذا قلتُ لك يا ميلوش ؟ ألم أقل لك أن تلزم الحذر . وأكرّر لك ، قال وهو يستدير مشيراً إلى البلاغ المعلّق وإصبعه تدلّ على التوقيع . لقد أعلن مفوض الرايخ ، دانكو بنفسه ، في هراديك أنه لن يتردّد ولو لثانية واحدة ، وأنّه سينفذ حكم الإعدام بعدد من مستخدمي السكة الحديد التشيكيين !

هزّ برأسه وإذا بحمامةٍ كانت تتخطّر على رصيف المحطة تطلق هديلها فطار سرب من الوشقات نحو باب المكتب .

كان قطار بضائع يدخل إلى المحطة . فخرج رئيس المحطة وطارت الحمامات وحطّت على كتفيه وعلى رأسه ، ومدّ ذراعيه ، فحطّت الوشقات عليه كما لو أنه تمثال في ساحة عامّة . وكان الرئيس يشعر بالاعتزاز لأن رئيس القطار وأفراد طاقمه ينظرون إليه ، وكذلك السائق الذي كان يمسح يديه بخرقة صوف سميكة ، فأوقف تنظيف نفسه ونظر بدوره إلى رئيس المحطّة ، فيما هذا الأخير يمشي على الرصيف حاملاً هذه الجوقة التي تصفق بأجنحتها لكي لا تفقد توازنها .

ـ لقد زودونا بفحم رديء ، قال السائق ، إنها المرّة الثانية التي نتوقف فيها قسراً لتخزين البخار .

ـ إذن ، أما زلت ترسم يا سيد كينز ؟ سأله هوبيكا .

ـ كالعادة ، قال السائق مؤكّداً . وفي هذا الوقت بالذات أحاول أن أرسم البحر. عجباً، لعل في استطاعة رئيس محطتك أن يقدِّم نمرةً في السيرك ، هو وحماماته .

ـ يا له من سيرك عجيب ، قال هوبيكا . إذن أنت ترسم البحر في الوقت الحاضر ؟

أما أنا فكنت واقفاً على الرصيف أراقب رئيس القطار وأفراد طاقمه والسائق ولم ألبث أن أدركت أنّهم إنّما توقفوا هنا للقاء السيد هوبيكا ليروا إذا كان صحيحاً أم لا ، لمجرّد النظر إلى وجهه ، ما يُروى عنه بأنه شمّر تنورة عاملة التلغراف أثناء ورديّة الليل ووسم مؤخرتها بختم المحطّة .

البحر ، قال السائق ـ فيما يواصل تحديقه بالسيد هوبيكا بعينين تشعّان إعجاباً ـ أحاول تكبير صورة البحر نقلاً عن بطاقة بريدية .

ألا تفضّل أن ترسم مباشرة نقلاً عن الطبيعة ؟ سأله هوبيكا .

ـ لا تكلّمني على الطبيعة ! فهي لا تتوقف عن الحركة ، صرخ السائق ، وضحك واستدار نحو مقطورة الصيانة وغمز بعينيه فانفجر الجميع ضاحكين . لو أردت أن أرسم نقلاً عن الطبيعة لاضطررت لأن أرسم كلّ شيء مُصغَّراً . لقد انهمكتُ بها مرّة ،

هذه الطبيعة ، واكتفيت ! استلفت ثعلباً مُصبَّراً من المدرسة ووضعته في الغابة بين الأغصان والأوراق وما أن شرعت برسمه جاء كلبان ومزّقاه إرباً ، ذاك الثعلب المسكين . ثلاثمائة كورون . وتقول لي طبيعة !

ولكن السيّد هوبيكا كان يتأمّل السّماء الزرقاء، وأنا أيضاً بتُّ أرى في هذه السماء المشهد إيّاه ، أرى زدنيكا ، عاملة التلغراف ، تستلقي على الأفق والسيّد هوبيكا يشمر تنورتها برفق ثمَّ يتناول الأختام ، واحداً تلو الآخر ، ويطبعها بحركات مسرحية على مؤخرة عاملة التلغراف . . . وأرى عيونهم شاخصةً إلى السماء ، رُكّاب القطار وأفراد طاقم القاطرة ، وأنهم جميعهم يرون المشهد نفسه ، هذا الحدث الظريف الذي جعلهم يتوقّفون لأجله بحجّة تخزين البخار .

وحين ملّوا أنظارهم لشدّة ما تأمّلوا السماء الزرقاء ، نظروا بإعجاب إلى السيد هوبيكا الذي بدا فجأةً أكثر جمالاً . وأكثر وسامة كانت التجاعيد عند زاوية فمه ، وساقاه المقوّستان قليلاً أكثر تناسقاً وانسجاماً مع جسمه . وأدركتُ أنه يمتلك سحراً أكيداً في عيون النساء .

ـ أتعلم كيف أرسم البحر نقلاً عن بطاقة بريديّة ؟ سأله السائق . أضع اللوحة التي أرسم عليها بين فكّي ملزمة وعليها أثبت البطاقة البريدية بواسطة مسمار صغير وأرسم . ولكنَّ يدي لا

تطاوعني ، ولا أنجح في رسم خطوط التماوج ، حركة الأمـواج كما هي في البطاقة البريديّة .

ـ ولكن يا سيد كينز ، قال السيـد هوبيكـا ، ما عليـك سوى أن تثبت البـطاقة البـريديـة بين فكّي الملزمـة وإلى جانبهـا اللوحة ، ثم تحرّك الريشة بهذه الطريقة عـلى أمواج البـطاقة البـريديّـة ، وعندمـا تلتقط يدك الحركة المناسبة وسِّع الحـركة لتـرسم أمواجـاً أكبر وحـين تصبـح الأمواج بـالحجم الذي تـريده إبـدأ بـالـرسم مبـاشـرة عـلى اللوحة .

ـ يا لها من أفكار تراودك ، أنت ! قال السائق بدهشة .

هرعتُ إلى مكتب المحطة ، كـان الهاتف يـرنّ ، وسمعت رئيس المحطّة يوبّخ وشقّاته ولكنّه يتصنّع الغضب ، كل الحمـامات كـانت معه في البرج ووددتُ لو اختبىء داخل البرج لأرى من خلال فتحـةٍ خفيّة ماذا يفعل رئيس المحطّة مع هذه الحمامات . كان يُخيَّل إليّ أن الحمامات تضحك هي أيضاً وأن رئيس المحطّة يعظها وأنّه لن يلبث أن يُمسك بإحداها ويصفعها على قفاها لأنّها غـير مطيعـة . . . كانت سمّاعة الباكليت على أذني وأنظاري شاخصـة باتجـاه الرصيف حيث يقف رجالٌ يتنعّمون بدفء الشمس ، ثمَّ رأيت السائق ينحني عـلى أذن السيد هوبيكـا ويسرُّ له بـأمر مـا ، وحين انحنيتُ لأرى جـانب العربات المخصّصة لنقل الفحم ، ارتعدت أوصالي . إذ رأيت قرني بقرة ينبثقان من إحـدى العربـات ، وعدة رؤوس تنتصبُ شـاخصة العيـون باتجـاه الـرصيف ، عيـون أبقـار واسعـة ومليئـة بـالفضـول

والأسى . وكانت أرضيّات معظم العربـات مثقوبـة لشدّة مـا ركلتها الحـوافر ، ومن أحـد الثقوب تـدلّت قائمـة مجروحـة ، ثابتـة وداكنة الـزرقـة . . . مـا أحببتُ أن أرى هـذا ، إذ كـان أمـراً لا أطيق احتماله ، فحين كانوا ينقلون العجول المتضـوّرة ويتوقف القـطار في محطتنا ، كنت أمدّ أصابعي من خـلال باب العـربة المفتـوح ، فهذا أقلّ ما يمكن أن أفعله لأوهم العجـول ، ولو للحـظات قليلة ، بأنها تـرى ضرعـاً ، إلا أني ما كنت أحبّ ذلـك ! كما أني لا احبّ منـظر الجداء حين يسـوقها الجـزّارون وقوائمهـا مقيّدة بحبـالٍ رفيعة وقـد حُزِّمت بقوة بحيث تمنع دورة الدمـاء عن أوصالهـا ، أشياء لا أطيق احتمالها ، والأكثر بشاعة حين ينقلون ، أوقـات الصقيع في عـربات مكشوفة ذات أدوار ، الخنازير الصغيرة إلى مسالـخ براغ ، الخنـازير بـرؤوسها الصغيـرة الملتصقة ببعضهـا البعض ، تخاف أن تتحـرّك ، لأنّ أدنى حركة تجعلها تفقد المزيد من الدفء ، خنازير صغيرة مجمّدة القوائم خزفيّة الحوافر ! آه كم كنت أكره أن أرى ذلـك ! أو حتى في الصيف ، حين تُنقل ، في القيظ الخانق ، بلا مـاء ، من هنغاريـا ، قافلة كاملة من الخنازير المرخية الأشداق يكبّلها العطش ، كما لو أنها عصافير تموت ظمأً .

خرجت من مكتب المحطّة .

ـ من أين تأتي هذه الحمولة ؟ سألت رئيس القطار .

ـ من الجبهـة . هـذه بهـائم استغـرقت رحلتهـا عشـرة أيـام حتىّ الآن ، قال ذلك وأشار بيده كمن يسلّم بأمرٍ لا مفرّ منه . صعـدت إلى حافة إحدى العربـات ونظرتُ إلى الأسفـل . كلّ البهـائم كانت

مـرغية مـاخطة ، وبعضهـا نَفَقْ ، ومن كفل إحـدى البقرات تـدلّى عجـل ميت بدأ العفنُ يتـآكله . . . ورأيت ، فيها أنـظر أزواجـاً من العيون المُرعبة المُعاتبـة بصمت ، أزواجاً من العيـون المعذّبـة التي لم أملك إزاءهـا إلاّ أن ألوّي بيـديّ يأسـاً وقنوطـاً . قـطار كـامـل من العيون المعاتبة ، من عيون البهائم .

صرختُ : الألمان أوغاد !

ـ أوغاد ، هذا أقـلّ ما يُقـال ! أجاب رئيس القـطار . العربـات الثلاث الأخيرة مليئة بخرافٍ نصف حيّة . . . كانت جائعة لـدرجة أنها راحت تأكل جزّاتها !

ـ أصبح لدينا بخار ، قـال السائق ، وأضـاف بصوت خفيض : هل سمعتم النبأ ؟ لقد فجّر الأنصار في الليلة الماضية أحد قـطارات الحراسة المشدّدة في منطقة بيهلافا ، وكانت الإصابة من الدقّة بحيث انقلب القـطار بـأكمله في الـوادي ، أمّـا العبـوة الثـانيـة ، وكـانت مخصصة لهذا القطار ، فقد استُخدمت لتفجير الجسر .

صعد إلى القاطرة وضغط على العتلة وأخذ قطار البضائع يتحـرّك تتبعـه العربـات التي تحمل قـوائم البهـائم ونـظراتهـا ، والأرضيّـات المثقـوبة التي تتـدلّى منها القـوائم المجرَّحـة والمسودّة بفعـل التخـثر . وخلف إهـراء القمح ، الليفـربول ، هنـاك قرب المنحـدر ، كـانت عربتان تنتظران ، عربتان كان قطار الصباح السريع ، خلّفهما وراءه بانتظار أن تبدأ الرحلة إلى مسالخ براغ .

ثمّ عبـر قطاران عسكـريّان تحت الحـراسة الخـاصة ، لم أرَ فيهـما

سوى عربات مصفّحة ودبابات «تايغر» وفي القـاطرة يقف ضـابط ، فـلا بدّ أن يكـون هـذا التـدبـير بسبب الأداء الجميـل لـلأنصـار في ييهلافا . كان تجّار البهائم يسوقون أبقاراً من البلدة ، وكانت الأبقار المبقّعة الجلود تعاندهم . ربضت إحدى البقرات ، من يأسها ، على الطريق فوضع الرعاة غمر قش تحت ذيلها وأشعلوه ؛ ثمّ بدت عربة من جهـة البيوت ، كـانت الجيـاد التي تجرّهـا مشـدودة العنـان لأن العربة تجرّ ثوراً ، وكان الثور مكسور الركبتين وقد تمزّق خطمـه بعد انتزاع الحلقة المعلقة في منخريه . كان مربوطاً إلى العربـة من قرنيـه والعربة تجرّه . إذ لم يدرك الثور إلاّ بعد فوات الأوان أن ابنة المزارع خـدعته وأنها تـدبّرت أمـر تسليمـه للجـزارين ، فـاستغلّت رائحـة تنورتها التي اعتاد عليها والتي قد يتبعها إلى آخـر الدنيـا . وها هـوذا الآن ، تقطره عربـة الخيل عـلى الطريق المغـطى بالثلج المـائع حيث تخط ركبتاه الداميتان خطين أسودين .

ـ ميلوش! قال السيّد هوبيكا، إذ جعلني التفت إليـه بحركـةٍ من يده وأمسكني بذقني . باتت المسألة بيننا الآن مسألة حيـاة أو موت . لقد جعلوك تدفع ثمن ما فعلته أنا .

ثمَّ رنَّ هاتف مجموعة التوجيه .

قلتُ : «الألمان أوغاد» ! ورفعت سمّاعة الهاتف وارتعدت .

ـ يا سيد هوبيكا ، لقد وقعت ذراع الملوِّحة !

سألني : «لمن فتحنا الخطّ» ؟

ـ للقطار السريع .

ـ إنّه أمر سيء .

ـ يا سيّد هوبيكا ، قلتُ ، سأذهب على درّاجتي واحرّر ذراع الملوِّحة .

هرعتُ إلى دراجتي وسلكتُ الدرب الضيق بمحاذاة الليفربول حتّى عمود الملوِّحة وتسلّقت العارضتين المتوازيتين وجلست مفرشخاً فوق اللمبة ورفعت ذراع الملوِّحة . كانت القاطرة تقترب وهي تقطر هذا القطار السريع الذي ينقل الأطعمة والمشروبات الروحيّة والرسائل للضبّاط، قطار سريع يعبر المحطّات دون أن يخفف من سرعته ولا تنازعه أولويّة المرور إلاّ القطارات تحت الحراسة المشدّدة . أراد السائق أن يفرمل حين رآني على الملوِّحة ، ولكني تناولت مصباح الجيب وأضأت الشارة الخضراء مشيراً إلى أن الخطّ طليق . فلم يلبث السائق أن ضاعف سرعته وعبر هذا القطار السريع المؤلّف من مقطورات بضائع بسرعة سهم ، عبق الدخان أمامي ومرّت بضع ثوانٍ قبل أن أميّز السيّد هوبيكا على الرصيف وهو يراقب عبور المقطورات ، كانت القاطرة تذري الثلج وتجرّه وراءها ، وخلف المقطورة الأخيرة كنت أرى عاصفة ثلج مزيّنة بقصاصات الورق والأغصان اليابسة الصغيرة . . .

ثمّ حلّ وقت استراحة الطهر ، فسخّنت حسائي على نار المدفأة في قصعة زرقاء ، ووضعت ملوِّحة الدخول في وضعها الملائم لعبور عربة نقل المستخدمين ، ومدّ السيد هوبيكا ساقيه على طاولة

التلغراف ونظر إلى السماء الزرقاء من خلال النافذة .

ـ هل تعلم مَنْ يستقلّ العربة ؟ ألم يخبروك ؟ سألني .

ـ قالوا إنه رئيس الخط ، أجبته وأنا أحرّك ملعقةً في القصعة الزرقاء . ثمَّ فُتحَ الباب بهدوء ودخل أحدهم ، ورأيتُ بنطالاً رمادياً وحذائين ملمّعين بعناية ومعطفاً .

ـ يبدو أننا نمضي وقتاً طيّباً هنا ، قال الوافد الجديد .

ـ حقّاً ، أليس كذلك ؟ قلتُ وواصلتُ تناول حسائي وكانت قدما السيد هوبيكا لا تزالان على طاولة التلغراف فيما كان هو لا يزال يمعن النظر في السماء .

ـ أتعلمون من أكون ؟ أردف الوافد الجديد .

فقلتُ : «أجل ، لقد جئتَ للحصول على إيصال الاستلام ، أنت هنا من أجل البهائم .

ـ ربّما ، قال الوافد الجديد . أين رئيس المحطّة ؟

ـ في برج الحمام ، قلتُ .

استشاط الوافد الجديد وأحدثَ جلبةً لا يُستهان بها .

ـ إنّه هنا ، ذلك البشري ! إذن ، أتعلمون مَنْ أكون ؟ سألنا من جديد . أنا رئيس المقاطعة سلوسني !

هذه المرّة عرفت من يكون . كنتُ أسمع رؤساء المحطات ومساعديهم والمفتشين الذين ترتعد أوصالهم لمجرد ذكر إسم رئيس

مقاطعة سلوسني . فانتصبت واقفاً وحييت بيد فيها القصعة والملعقة في اليد الأخرى ، وعرّفت عن نفسي :

ـ المستخدم المتمرّن ميلوش هرما في الخدمة .

ـ دع هذه القصعة ! صرخ رئيس المقاطعة ، وضرب القصعة الزرقاء بقبضته فسقطت على الأرض وركلها رئيس المقاطعة بقدمه فتدحرجت القصعة واستقرت تحت الخزانة وهي تحدث جلبة خردة . كنتُ واقفاً أؤدي التحيّة ، ولكن السيّد هوبيكا كان لا يزال جالساً على كرسيه وقدماه تستريحان على طاولة التلغراف ، كما لو أنه أصيبَ بالشلل خوفاً من رئيس المقاطعة . مرّ رئيس المحطّة أمام النافذة ودخل إلى المكتب . كان على حاله ، إذ يعودُ من برج الحمام ، حاسر الرأس ، وها هو يؤدّي التحيّة ويُعلن عن إسم محطته .

ـ استرح ، قال رئيس المقاطعة بلطف ، ثمّ تفحّص بامعان سترة رئيس المحطة النظامية القديمة وقد غطّاها روث الحمام ، تريّثت نظراته بتلذّذ عند الزرّ الوحيد المتبقي ، ودار حول رئيس المحطة متأمّلاً بنطاله المتسخ .

ـ كنت أفكّر . . . قال رئيس المحطّة .

ـ هذا لأنّه يفكّر هو أيضاً ؟ سألني رئيس المقاطعة بهدوء .

ـ أجل ، قلت .

ـ أجل ؟ قال رئيس المقاطعة بدهشة . وهل تعلم أنني اقترحت

بأن يُرقّى هذا المساعد الأوّل إلى رتبة مفتش ؟

أرخيتُ كتفيّ مرتبكاً .

ـ إذن ، كنت تريد أن تصبح مفتشاً ؟ سأله الرئيس فيما كانت ريشة تتطاير فوق رأس رئيس المحطّة .

ـ أجل ، قال رئيس المحطة متنهّداً فيما طارت الريشة إلى أعلى وراحت ترتفع وتهبط فوق جبينه .

ـ ألا ترغب في أن تذهب لتربية الأوزّ ؟

ـ لا ، تنهّد رئيس المحطّة ، وانتصبت الريشة فوق جبينه مثل علامة استفهام بيضاء .

ـ سنبحث في الأمر فور عودتنا إلى هراديك . بأية حال ، لجهة كونها محطة طريفة فهي محطة طريفة ، صرخ رئيس المقاطعة وبحركة واحدة من يده كنس جزمة المعاون عن الطاولة . هل تعلم من هم الذين وصلوا في العربة ؟ إنها اللجنة التي جاءت لتحقّق ميدانياً ثمّ تحدِّد ما إذا كان سلوك هذا السيّد يستدعي ملاحقة قضائية بتهمة ارتكاب عمل فاضح ، أم تكتفي بإجراء تأديبي ! وأشار إلى السيد هوبيكا .

فتح رئيس المحطّة باب مكتبه فبانت السجّادة الفارسية المزركشة بالورود الحمراء والزرقاء ، وكذلك مكتب الأكاجو ، والنخلة ذات السعفات المنفرجة كمظلّة والمناضد التركية ولكنّ رئيس المقاطعة هزّ

برأسه بلا اكتراث .

ـ حانوتي مثل هذا يليق به مثل هذا الحانوت ، قال الرئيس .

ثم دخل المستشار زدنيتشيك حاملاً محفظة محشوّة بالملفات وفرد بعض الصور على طاولة التلغراف ، صور كلّ الأختام التي غطّت مؤخّرة زدنيكا لانج ، عاملة التلغراف . كان رئيس المحطة يواصل الحاحه على أن يُسمح له بالذهاب لاستبدال ثيابه ، ويردّد أنّه يملك بزّةً جميلة ، ولكنّ رئيس المقاطعة سلوسني لم يكن يبالي بكل توسلاته إذ يتوجب على رئيس المحطّة تدوين محضر جلسة الاستجواب . ثمّ دخلت زدنيكا بدورها ، حتّى أني ما عرفتها ، كما لو أن طبعات هذه الأختام والفضيحة التي تلتها جعلت منها شخصاً آخر ، فقد أصبحت جميلة ولعينيها غورٌ أعمق ، أحسست بدوار حين مدّت يدها لتصافحني ونظرت في عينيَّ مبتسمة وحين قالت لي إنّها من دون شك ستعمل في السينما وإنّ المخرجين يُبدون اهتمامهم بها في الوقت الحاضر ، بدأ المستشار زدنيتشيك ببسط خارطة أوروبا ، ليُلخّص ويشرح ، استهلالاً ، الوضع العسكري لجيوش الرايخ . بسط الخريطة وأوّل ما رأيناه عدداً من الثقوب فيها . ذلك أن المستشار زدينتشيك كان يحمل هذه الخارطة في جيبه باستمرار فتمزّقت من زواياها لفرط ما كان يطويها ويبسطها . وكان كل واحدٍ من هذه الثقوب بحجم سويسرا على الخارطة . والسيد زدينتشيك يشرح وضع الجيوش في منطقة الكاربات حيث يقاتل الجيش الخامس بقيادة فون مانسفيلد ، وهو الجيش الذي يقاتل إبنه في صفوفه أيضاً ، برتيسلاف زدنيتشيك ، ولكنْ ، على الخارطة ، كان

الجيش الخامس لا يزال في الثقب ، عند الثنية ، ومضت ثمانية أيّام وهو لا يزال في مكانه ولم ينجح في الخروج من هذا الجيب حيث يقاتل زدنيتشيك الإبن الذي لا يجيد الألمانية أكثر مما يجيدها والده ، والذي جعل نفسه جرمانياً بشطب كل مخارج الحروف الحادّة من إسمه وكل إشارات المدّ المقلوبة . وكان المستشار زدنيتشيك يواصل استعراضه للوضع ويخط بقلمه على الخارطة الصغيرة دوائر هي في الحقيقة بحجم البحر الأسود ، وكانت هذه الدوائر تُشير إلى تحركات عمليّة الكمّاشة التي تنفذّها جيوش الرايخ التي لن تلبث ، بين لحظة وأخرى ، أن تحكم الطوق حول العدو ، وبجرّة قلم حدّد السيد زدينتشيك تحرّك جيوش الرايخ عبر آسيا الصغرى باتجاه أفريقيا ، حيث طوّقت الجيوش البريطانية التي وقعت في الكمين ، ثمّ عبر اسبانيا ، حيث وصلت إلى الخطوط الخلفية للجيوش الأميركية ، وبعد ذلك تطرّق إلى الوضع في محميّة «بوهيميا ـ مورافيا» حيث سيطبق قريباً نظام العمل الإلزامي على الجميع ، وهو الأمر الذي يُرتّب تبسيط البرامج التعليمية واختصارها وإغلاق المتاحف والمعارض الفنيّة وإلغاء بعض رحلات السكة الحديد ، والامتناع عن مزاولة الرياضة إلاّ في أيّام الآحاد .

ـ هل هذهِ مؤخّرتك ؟ سألها المستشار وهو يَعرض على زدنيكا إحدى الصور .

ـ أجل ، قالت ، وابتسمتْ .

ـ مَنْ طبعَ عليها هذه الأختام ؟ سألها المستشار فيما كان رئيس المحطّة يدوّن الأقوال .

ـ السيّد هوبيكا ، قالت .

ـ إذن يا آنسة لانج ، أخبرينا كيف حدث ذلك ، قال المستشار زدنيتشيك .

ـ كنّا معاً في ورديّة الليل . ونحو منتصف الليل قلّمتُ أظافري إذ لم تكن هناك حركة قطارات ، وكنا نشعر بالملل ، قالت زدنيكا موضحةً وهي تنظر إلى السقف .

ـ على مَهْل ، قال رئيس المحطّة .

ـ ثمّ قال السيد هوبيكا أننا سنلعب لعبة «طِر يا حمام» ، «طِر يا عصفور» ، طيري يا طائرة ، طيري يا ورقة ، طيري يا سجّادة ، طيري يا طائرة الورق . . . خسرتُ في البداية حذائي ثمّ سروالي . . . أوضحت عاملة التلغراف وهي تتبع بعينيها حركة القلم الذي يدوّن به رئيس المحطّة وقائع اعترافاتها .

ـ ومَنْ نزعه عنك ؟ سألها المستشار .

ـ المعاون هوبيكا .

وكان المعاون جالساً على كرسيه وهو يضع ساقاً على ساق وقبّعته النظاميّة على ركبتيه ، كانت صلعته الملساء تلمع وكان موظفو الإدارة من هراديك الذين ينظرون تارةً إلى هذه الصلعة وتارةً أخرى إلى عاملة التلغراف الجميلة ، يتنهدون حسرةً ويهزّون برؤوسهم . ثمّ تابعوا استجوابهم بحماسة متجدّدة ، متلهفّين لأن يعثروا على تفصيل ماديّ من شأنه أن يبرّر اللجوء إلى الملاحقة القضائية بتهمة ارتكاب عمل شائن . أمّا أنا فكنت أمارس وظيفتي ، أجعل الخط

سالكاً أو أعطي إشارة التوقف ، وكنت أشعر أن السيّد هوبيكا يلاحق بأفكاره كلّ القطارات التي تعبر المحطّة وأنه يراقبني .

لطالما كان السيد هوبيكا مَثلي الأعلى ، منذ أن كنّا في دوبروفيتش ، حيث كان مكلّفاً تدريبي ، فهو يستطيع أن ينظم تقاطع عبور قطارين بيد واحدة وباليد الأخرى يُبرق لمحطةٍ أخرى معلناً وصول حمولة . وها هو الآن كمن يمثل أمام هيئة المحكمة . كنت أدرك أنَّ هذين الموظفين ، رئيس المقاطعة والمستشار زدنيتشيك، يودّان لو يفعلان بزدنيكا ما فعله السيّد هوبيكا بالضبط، ولكنّهما على قدر كبير من الجبن، شأن كلّ الآخرين، كانا خائفين جداً ، والوحيد الذي لم يكن يشعر بالخوف أبداً هو السيّد هوبيكا الذي يتربّع على هذا الكرسي ويتلذذ بانتصاره .

ـ والآن يا آنسة لانج ، انتبهي جيّداً ، قال المستشار زدنيتشيك وهو ينهض ، هل تعرضتِ لأي ضغطٍ من قبله قبل أن تستلقي على طاولة التلغراف ؟ هل هدّدك ؟ ألم يستخدم العنف ؟

ـ لا ، أبداً ! على الإطلاق ! لقد استلقيتُ من تلقاء نفسي . وحدي . . . فجأةً شعرت بالرغبة في أن أتمدّد على الطاولة وأنتظر لأرى ماذا سيفعل ، قالت عاملة التلغراف بابتسامة .

ـ وأنتظر لأرى ماذا سيفعل ، ردّد رئيس المحطة مُدوّناً .

هرعتُ إلى الرصيف ، كان قطار عسكري تحت الحراسة الخاصة يعبُر على الخط الرئيس ، ورأيتُ شباناً من أعمار فتيّة جداً يتمتعون بحمّام شمسٍ على العربات المصفّحة ، كانوا فتياناً مثلي ، وبعضهم

أصغـر سنّاً ، يلعبـون بكرة خضـراء ، أحدهم يُغنّي من فـوق بـرج المصفّحة : «ضيَّعتُ قلبي في هايدلبرغ» . . . ولكنْ حين مرّوا أمـام القِطار المنخور بالرصـاص والمركـون علـى الخط الخامس ، سكتـوا وبـاتوا كـالأصنام ، ومَنْ منهم رأى بعينيـه هذه العـربـات المنخـورة المُعدَّة للترحيـل إلى مشاغـل الصيانـة بُهِتَ كالمشلول ، حتّى الـطهاة توقفوا للحظة عن تقشير البطاطا ، ممـا لا شكّ فيـه أنّ هؤلاء الجنود شهدوا في بلادهم أشياء أشدّ هولاً ، مدناً ومنازل مهدَّمة ، وأكـواماً من الجثث لكنّهم ، من دون شك ، لم يتوقعوا أن يروا هنا مثل هذه الفظائع .

دخلتُ إلى المحطّة لأبلّغ عن عبور القطار .

اقترب المستشار زدنيتشيـك من النافذة .

ـ هـاكمُ فتيانـنـا ، أملنا . إنهم في طـريقهم إلى القتـال في سبيـل أوروبا حرّة ، وأنتم ماذا تفعلون هنا في الأثناء ؟ تختمون على مؤخّرة عـاملة التلغراف ! قـال واقترب من الـطاولـة وتفحّص الصـور ثـمّ رماها .

ـ طبعـاً ، قال ، أخفقنـا في إثبـات الفعـل الشـائن . . . ولكنّهـا إهـانة مـوجهة إلى اللغـة الألمانيـة ، إلى اللغة القـوميّـة ! ـ وانتصب وضـرب بقبضته عـلى الـطاولـة ـ إن نصف الأختـام تحمـل كلمـات ألمانية . إنّه تدنيس للمقدسات !

وخـرجتُ إلى الرصيف ، ورفعت إشـارة الخط السـالـك لقـطارِ مُستشفى عائد من الجبهة ، قطار سـريع تمّ تحـويله إلى مستشفى .

وفي هـذا المستشفى المتنقل رأيت أغـرب عيـون قـد يمتلكهـا بَشَر ، عيـون الجنود الجـرحى ، كما لـو أن الأَلَم ، هناك عـلى الجبهة ، الألم الذي سبّبوه لآخرين والذي سبّبـه آخرون ، بدورهم ، لهم ، كما لو أنّ هـذا الألم جعل منهم رجـالاً مختلفين ، كـان هؤلاء الألمـان تبـدو عليهم سيماء المودّة أكـثر من أولئك الـذين كانـوا يعبرون في الاتجـاه المعاكس ، إذ يتأملون المشهد الصفيق من خلال النـافذة ، بنـظراتٍ يقظة وطفولية كما لو أنهم مرّوا بالفردوس ، كما لو أنَّ محطتي الصغيرة هي أجمل القصور ، وتـرتسمُ في عيونهم نفس التعـابير التي تبـدو في عينيّ السيـد هوبيكـا حين يتـأمل السـماء . إذن كنت ألمح الاهتمـام نفســه في عيـون هؤلاء المـرضى الشـاحبي السِحن الــذين ينـظرون نحوي بعضهم يُديـرُ رأسه وبعضهم يقف متشبثـاً بالحلقـات المدلاّة من سقف المقـطورة ، وبعضهم الآخر يتكيء عـلى كتف ممـرضـة ، كـان هذا المستشفى المتنقـل في طريقـه إلى الوطن ، ولا شيء سـوى أسـرّة بيضاء مـزيّنة بـأيدٍ صفـراء متشنجة وبـوجوه شـاحبـة وعيـون طفولية . وكانت عربة المؤخّرة في هذا القطار المستشفى عربة بضائع مكشوفة ، يقف عليها ممرضـان ينزعـان سترة المستشفى عن إحـدى الجثث قبـل أن يرميـاها فـوق كومـةٍ من الجثث الأخـرى التي بـاتت متخشبة . . . جنودٌ ماتوا في الـطريق . . . ثم راح القطار المستشفى يختفي في البعيد فيما فانوس عربة المؤخرة الأحمر يغمز ويرنّ، يتأرجح ويصرّ .

ـ إنَّ أنبـل الأعراق البشـريـة تبـذل أرواحهـا في سبيلكم ، قـال المستشـار زدنيتشيك وهـو لا يزال واقفـاً أمام النـافذة . أرأيتم هـذا

القطار المستشفى ؟ وأنتم ، انظروا ماذا تفعلون ! ولكن ها قد انتهينا من هذا الأمر . دوّن الخاتمة ، أضافَ مخاطباً رئيس المحطّة . إجراءٌ تأديبي بحقّ السيّد هوبيكا لاديسلاف .

خرج إلى رصيف المحطّة وأشار بأن تقترب عربة نقل المستخدمين . صعدت عاملة التلغراف إلى الشاحنة وجلست إلى جانب رئيس المقاطعة .

بلّغتُ وشوك انطلاق العربة واعطيت إشارة الانطلاق .

ـ هل تعلم مَنْ هُم التشيكيون ؟ قال المستشار زدنيتشيك . إنّهم أفظاظ هازئون !

سارت العربة بمحاذاة القطار المنخور بالرصاص والمركون على الخط الخامس ، وكان المستشار زدنيتشيك يمعن النظر في الثقوب التي أحدثها رصاص الرشاشات في العربات التي نُزِعت سقوفها . صعد رئيس المحطّة إلى الطابق الأوّل حيث راح يزعق ويقلّب الكراسي ويجعل فتات الكلس يتساقط في غرفة المكتب ، كان يَصيحُ باتجاه فناء التهوية :

ـ لم يعد ثمّة أخلاق ! كل شيء بات فاسداً ! كما في مدينة «سدوم» القديمة ! يلوذ البغاءُ بالمقاهي والمطاعم والمكاتب بمباركة الشرطة . أحدُ الأزواج يُرغِمُ زوجته على ممارسة البغاء ، ويهدّدها بأن يشطر إبنها بالمنشار إلى نصفين لو رفضت الذهاب إلى سباق الخيل ! الكلُّ في انغماساته ! الكلُّ يلمّع القربة ! فالأحرى أن ينفخ الله في صور القيامة وتحلّ النهاية !

ثمَّ دخل إلى المطبخ وراح يخبط بقدميه ليظهر لنا جيِّداً أيّ جلجلة يُكابد لمجرد أن نكون مرؤوسيه . وبعد مضيّ ساعة كان يهمّ بالدخول إلى مكتبه . بالبزّة النظامية الكاملة . وفي الأثناء ، كان آخر الثيران يُقتادُ إلى رصيف التحميل ، الثور الذي تمّ نقله بواسطة شاحنة كبيرة إلى المحطّة ، وكانت إبنة المزارع جرّته إلى الشاحنة لتسلّمه للجزارين ، وفي الطريق رأى الثور لوناً أحمر : فقال المعلِّمُ لصبيّه : يا بوهوس ، إبن الزنا هذا سيقلب الدنيا علينا ، خذ هذا السكين وافقأ له عينيه ! ولم يكن من صبي الجزار بوهوس الذي روى لنا ما حدث في مكتب المحطة إلاّ أن مدّ يده وفقأ عيني الثور بضربتي سكين . «وبعد ذلك أصبح الثور وديعاً كالحَمَل ، قال الصبي بوهوس موضحاً ، ومن المؤكّد أنه بات غير متمسّك بالحياة» . وعندما أحدث الزبائن ضجةً وهم يوصدون باب العربة وراء الثور استيقظ رئيس المحطّة . كانت الحمامات تتخطّر على حافّةِ النافذة وتهدل وتمدّ اعناقها نحو رئيس المحطة ولكنّ رئيس المحطّة كان يرمقها مقطّباً ويهزّ برأسه ويمرِّر إصبعه تحت الياقة ثمّ يعود ويستغرق من جديد في أفكاره ، كان حزيناً ، وأشدّ فأشدّ حزناً . فتح الخزانة ونظر إلى بزّته الجديدة التي لم يستطع أن يرتديها بعد والتي طرّزت عليها النجمة المذهّبة الوحيدة والمزيّنة بالشارة المذهّبة والخيط المذهّب ، عينُ الخيط الذي يُستخدم لخياطة فند الزيزفون شارة الجنرالات .

لشدّة قنوطه ، هرع إلى مكتب المحطة ودلف إلى المطبخ في الطابق الأول ، ولكي يتأكّد من أننا نسمعه ، صرخ تكراراً نحو

فناء التهوية :

ـ بإمكاني ، الآن ، أن أضعها في مكانٍ ما ، كتفيّة المفتّش هذه !

فيما بعد ، بعد أن عبر آخر قطارات المسافرين ، وبعد أن مكث لبرهة على الرصيف مُتأمّلاً السماء الموشّاة بالزرقة لمستهلّ الربيع حيث كان يرى ، بالتأكيد ، المشهد الذي جعله ذائع الصيت في نواحي هراديك كراكوف بأسرها ، حيث كان يرى ، بالتأكيد ، هذا الشريط السينمائي وعاملة التلغراف تستلقي على الشاشة الواسعة الزرقاء ، فيشمر تنورتها ويتناول الأختام واحداً تلو الآخر ، أختاماً كبيرةً بحجم أجراس الكنيسة ، ويطبع هذه الأختام على اللحم الطري لمؤخرة عاملة التلغراف ، بعد ذلك ، إذن ، التفت المعاون وحسم أمره وتحت السقيفة المائلة حيث عتلات وروافع ضبط الخطوط والملوّحات والاشارات ، قال لي بصوت خفيض :

ـ ميلوش ، غداً سنكون معاً في ورديّة الليل . . . وسيعبر المحطّة قطار بضائع مؤلّف من ثمانٍ وعشرين عربة محمّلة بالمتفجرات ، فهم ينقلونها في عربات مكشوفة ، سيمرّ القطار في محطتنا عند الثانية فجراً . ولا يفصل بين محطتنا والمحطة التالية سوى سهل فسيح لا أثر فيه للمباني . . . وقد ينفجر هذا القطار في صحّةِ الكون . . .

ـ طبعاً يا سيّد هوبيكا ولكن كيف ؟

ـ سوف نحصل على ما نحتاجه عندما يحين الوقت .

ـ وأين هو هذا القطار ؟

ـ ينطلق غداً من تربيك .

ـ إذن نحن من سيراقب القطارات العسكريّة منذ الآن ، أليس كذلك ؟ أجبتُ بنبرةٍ مرحة ، وغرقت السُقيفة للحظةٍ في الظلام .

كان سرب حمام الوشق عبر لتوّه من أمام النافذة .

* * *

جاءَ مِنَ القصر مَنْ يُعلن أن رئيس المحطّة مدعوّ إلى العشاء عند الكونت كينسكي ، وأنَّ أحد الخدم سيأتي لاصطحابه عند الساعة السابعة . وفي مكتب المحطّة أسدلتُ ستائر التمويه وأشعلتُ النور . وفي مكتب الرئيس ، حيث الكهرباء متوفّرة ، أشعلت مصباح الكاز ذا الفتيل المدوَّر والكُمّة الخضراء . ثمَّ ذهبت لأنضمّ إلى السيّد هوبيكا ولأهتمَّ بالقطارات التي تعبر المحطّة ، وكنت أُشير بفانوسي الأخضر . أحضر رئيس المحطّة بزّة البارونية ذات البنطال الرمادي إلى مكتبه ، ومعها قميص صيّاد وقبّعة تيرولية مزيّنة بأرياش ديك الخلنجة . ولم يغلق باب المكتب أثناء ارتدائه ملابسه . وكانت السعادة بادية عليه .

على طريق القصر كان الخادم يسيرُ باتجاهنا على صهوة جوادٍ أبيض وإلى جانبه جوادٌ أبيض آخر . كانت النجوم تلمع في السماء والليلُ يُومضُ وكان الثلجُ الذي أصبح جليداً يفتُّ ويصرّ تحت النعال . وكان المصباح الأخضر يهسُّ بهدوء في مكتب رئيس المحطّة الذي يتمعّن في مظهره في المرآة . كان يرتدي بزّته الرسمية وقفّازين

من جلد الأيّل وقبعته التيرولية . وعلى الأرضيّة كان المصباح يعكِسُ دائرةً بيضاء تتشكّل حولها ثمَّ تتلاشى دوائر أكبر حجماً تشبه القفص الصدري لهيكل عظمي . هكذا عندما كنت أقضي عطلتي في بيت جدّتي كانت تُضيءُ مصباح كاز على الطاولة وعند المساء يحلو لي أن أظلّ مستلقياً على سريري وأنا أراقب الأخيلة المتداخلة عند السقف إذ تتشكل حول الدائرة البيضاء التي يعكسها ضوء المصباح . وحيثما أقلّب نظري أرى دائماً الهيكل العظمي إياه على السقف ، حتّى وأنا مُغطّى الرأس والعينين كنتُ أرى دائماً السقف والهيكل العظمي . وذات مساء فيما كنت أنظر إلى السقف أحضرت جدّتي حطباً في إزارها واسقطته أمام المدفأة فأحدثت جلبة فصرخت : الهيكل العظمي فَقَدَ ساقيه !

وصل الخادم إلى الرصيف على صهوة جواده الأبيض وإلى جانبه حصان أبيض آخر مُسَرج . كان الجوادان لشدّة بياضهما يشعّان بالضياء كدغل ياسمين مزهر في ليلة صيف .

ثمَّ خرج رئيس المحطّة من مكتبه ، فترجل الخادم وأعان رئيس المحطّة على تثبيت قدمه في الركاب. أرخى الرئيس العنان وابتعد خبَبَاً في اتجاه برج الحمام وصرخ رافعاً رأسه :

ـ نامي جيّداً أيتها الحمامات الصغيرة ! فأنا عائد إليك ! لن يهجرك رئيس المحطّة ! نامي أيّتها الصغيرة !

هدلت الوشقات وصفقت بأجنحتها على مُصبَّعة كوّة البرج المخفوضة فيما رئيس المحطّة يبتعد على حصانه برفقة الخادم . ثمَّ

اجتازا خط السكّة وَعَدا الجوادان الأبيضان على تربة الطريق الصلبة ، وكان وقع حوافرهما مسموعاً وحلّتهما البيضاء تمتزج بالسهل المغطّى بالثلوج ، وكان وقع المشهد غريباً إذ ترى رئيس المحطّة والخادم بطيفيهما وثيابهما الداكنة وكأنهما معلّقان في مدى الفراغ .

أخرج السيد هوبيكا مخطّطات السير الملفوفة كقطعة قماش أو حرير وبسطها وانكبّ عليها مُتتبعاً خطّ السير بطرف قلمه .

أزحتُ الستارة الخضراء وبدأت ببيع التذاكر ، اذ شرع المسافرون يتوافدون إلى صالة الانتظار المعتمة قليلاً ، وكانوا يبتاعون تذاكرهم ثمَّ يعودون إلى الزوايا المعتمة ، ويتجنبون الخروج إلى صقيع الأرصفة ويراقبون الموظّف ليُخمّنوا من حركاته ما إذا كان موعد وصول القطار البطيء الذي سيستقلّونه بات وشيكاً ، وكنت في بعض الأحيان أتصرّف معهم بخبثٍ ، مثلاً أن يكون موعد وصول قطارهم بعد نصف ساعة فأنهض،أرتدي معطفي وأرفع ياقته ثمَّ أخرج إلى الرصيف واتظاهر بأني أنتظر قطارهم فيهرع المسافرون ورائي، ولكن ما أن أسير بضع خطوات حتّى أضع فانوسي بجانب خط السكّة وأعود إلى مكتبي الدافىء ، فلا يلبث المسافرون أن يشعروا بالبرد فيعودون إلى صالة الانتظار ويجلسون حول المدفأة ويرمقونني بنظرات عدائية . كان رئيس المحطّة ينتهزُ ، هو أيضاً ، ظلال الليل وستاره فينتعل حذاءً مطاطيّاً ويقوم بجولة على أرجاء المحطّة ليرى ماذا يفعل المستخدمون . حتّى أنه فاجأني ذات مرّة نائماً في ساعة متأخرة من الليل . كنت جالساً على كرسي ، مُطرق الرأس

وغارقاً في النوم ، وكان رئيس المحطة واقفاً بجوار شباك الصندوق في صالة الانتظار يراقبني من وراء الستارة الخضراء ، ثمَّ خرج إلى الرصيف دون أن يُحدث أي صوت بحذائه المطّاط وفتح الباب على مهل ومكث ساكناً لبرهةٍ بجواري يتأمّل المشهد ثمَّ أمسكني من كتفي وراح يهزّني ، وأنا ، في غفوتي العميقة ، حسبتُ أنني في بيتي وأنّه حلّ الصباح فقلتُ : كم الساعة يا أبي ؟ فزعق رئيس المحطّة : تبّاً لك، ولآبائك ! أنا رئيس المحطة ولستُ أباك ! وأنت الآن في ورديّة الليل ! بوقاحة يُناديني أبي ! ثمَّ بعث بتقرير إلى هراديك وتلقّيتُ إنذاراً .

كان قطار المسافرين يدخل إلى المحطّة فخرجت إلى الرصيف وهرع المسافرون من صالة الانتظار ، كان القطار يصل ببطء وماشا تقف على مرقاة العربة الثانية ، وشاحها الأبيض يلوِّح كبقعة ضوء في الليل ، كان مصباح الخدمة مثبتاً على صدرها وثقّاب التذاكر معلّقاً برباطٍ في معصمها ، وكالمعتاد ، كما في اليوم الذي طلينا فيه السياج بعنابر سكك حديد الدولة ، كانت مُهفهفة مثل قِرْشٍ جديد في نهاية يوم العمل كما لو أنها لم تبدأ نهارها بعد . قفزت عن المرقاة وحين مدَّت ساقها رأيت حذاءها الأسود وجاربيها الأبيضين ، وكانت غمّازتاها تلمعان ووجهها يتألق في الليل الأزرق ، كما لو أنها غسلت أذنيها للتوّ بطرف منديل . وقدَّمت لي تفّاحة وكنت أحمل الفانوس بيد والتفاحة باليد الأخرى وماشا تلتصق بي . ضمَّتني بذراعيها وكانت أقوى مني ، وجهها يفوح رائحة الحليب ، وتضمني إليها بقوة حتى أن مصباح الزيت كان يلسع صدري وتحرقني شعلته

حتى أعماق قلبي وماشا تهمس :

ـ ميلوش ، ميلوش ، كم أحبّك ، كل الذي حدث بسبب غلطة اقترفتها أنا ، لقد سألت فتيات أخريات كيف ينبغي أن أتصرّف ، سألت فتيات تكبرنني سنّاً ، وأنا واثقة بأن كل شيء سيكون على ما يرام ، فأنا أعرف الآن كيف أتصرّف ، هل تفهمني ؟

ابتعدت عني قليلاً وأخرجت جدول المواعيد من جيبها ، فتحته وناولتني صورة لا أذكرها ، واحسست من ملمسها بين أصابعي كم أصبحت تالفة تلك الصورة . . . إنها صورتي التي احتفظت بها يومَ طلينا السياج باللون الأحمر ، صورة صبيّ في ثوب أزرق سماوي ، وقلبت الصورة ولاحظت صورةً أخرى أُلصقت بها، وأدركت على الفور من كان صاحب الصورة التي ألصقت عليها ، صورة لماشا وهي طفلة صغيرة في ثوب أزرق سماوي هي أيضاً ، وكانت هاتان الصورتان الملصوقتان ظهراً على ظهر مقصوصتين بشكلٍ بيضاوي .

ـ ميلوش ، متى ستعود إلى البيت ، متى ؟ سألَته .

ـ بعد غد ، إذا أردتِ ، قال مغمغماً .

كان علي أن أطلق إشارة ف ٩ ، التي تعني : رؤساء طواقم القطارات إلى مراكزكم ، ورفعت عاملات المراقبة مصابيحهن للإشارة بأنّ كل شيء بات جاهزاً للإنطلاق ، ورفعت فانوسي الأخضر وتحرّك القطار ، فضمتني ماشا والتصقت بي من جديد ، وضمّتني بقوة ، كما كانت صورتانا ، بلا شك ، ملصوقتين إحداهما بالأخرى لكي لا تنفصلا من جديد ، ثمّ قبّلتني وأمسكت بالمقبض

المعدني وقفزت إلى المرقاة ، كنت أرى على صدرها شعلة مصباح الخدمة الزرقاء وكنت أقف هناك ، مشدوهاً لشعوري بأنني رجل حقّاً وفي استطاعتي أن أتحسّس ذلك، وتحسَّست نفسي، أجل، كنتُ رجلاً ، ولكن كيف أمكن أن يحدث ذلك ، كيف أمكن أن يحدث ذلك مع ماشا ، عند اللحظة الحاسمة ذبلت فجأةً مثل زنبقة ؟ كان آخر لقاء لنا في المستشفى عندما جاءت لعيادتي ، كانت منحنيةً على سريري ترتدي سترةً نظاميّةً زرقاء ذات أزرار فضيّة ، وحين كانت هذه السترة تنحني عليّ كانت أزرارها تلمع كأضواء فوانيس الجسر ، قبّلتني ، ولكنْ قبل أن تفعل انزلقت صفارة الخدمة السوداء من جيب السترة الأعلى وسقطت على لثتي ، ثمّ جلست على سريري فوق يدي المضمّدة ، ولكنْ سرعان ما توجّب عليها أن تذهب ، كان أحد المرضى قد استفاق من البنج وأراد أن ينهض وأدرك أنّه مربوط بأحزمة فراح يصرخ ، ماكس ، أترك المقود ، أترك المقود ، ماكس ! واستطاع أن يحرّر إحدى يديه من الرباط ، وفتّش متلمّساً تحت السرير وأمسك المبولة الزجاجية ورماها بكل قواه فطارت المبولة عبر الصالة وصدمت الجدار المحاذي لسريري وتحطّمت فاندلق البول المُراقُ على ماشا ، فابتعدت والقطرات تتلألأ في شعرها فطيّرت نحوي قبلةً وهي تقف عند الباب وعندها نظرتُ إليها لأوّل مرّة ، وفيما بعد ، يوم خروجي من المستشفى ، تلفّتُّ من حولي ولكنَّ أحداً لم يأت لملاقاتي ، ذلك اليوم كنت مكتئباً لأن نزيلة السرير المحاذي لسريري ، فتاة في الخامسة عشرة ، وجدت في خزانتها هديةً من أهلها ، جزمةً مخمليّة ، فلم تقاوم ، انتعلت الجزمة وسافرت إلى براغ ، وهناك ، عند المنعطف الصخري ، في

نواحي ساتاليس ، اصطدم القطار بقطار آخر للمسافرين ، وعلقت ساقا الفتاة بين المقاعد . وعندما استفاقت بعد العملية الجراحية لم تكفّ عن الصراخ ضع جزمتي في الخزانة ، ضع جزمتي . . . خرجت من المستشفى بمفردي وكنتُ حين أرى انعكاس وجهي في الواجهات لا أعرف نفسي ، أبحث عن وجهي فلا أجده كما لو أنني أصبحتُ شخصاً آخر ومكثت على هذه الحال حتّى تعرّفتُ على وجهي ماثلاً أمامي في إحدى الواجهات ، كنتُ أشعر بأنَّ الواقف أمامي هو أنا نفسي ولكنْ كنت احسبُ أنّه شخص آخر ، رفعتُ يدي فرفع الآخر يده في الخيال الذي ينعكس في الواجهة ، ورفعت الذراع الأخرى فحذا الآخر حذوي ونظرتُ فما الذي رأيت ؟ بنّاء يقف قربَ الدربزين ، رجلاً هائل البنية يرتدي ثياباً بيضاء وملطّخة بالجصّ ، وعلى قارعة الطريق عبوة لاطفاء الحريق «مينيماكس» والبنّاء يرمقني وهو يلفّ سيكارة بين أصابعه ، ثمَّ يضع السيكارة بين شفتيه ، ويشعل عود ثقاب ويسحبُ عود الثقاب هذا في الواقي الذي جعله من راحة يده ويحني رأسه ويشعل سيكارته ، لكنّه لا يخفض عينيه عنّي كما لو أن باب الفندق في بسترس بنيسوف لا يزال يفصل ما بيننا ، ذلك الباب المفتوح الذي كنتُ اتلصص من فتحته على البنّاء فيما البناء يتلصّص عليّ من الناحية الأخرى . . . وكنتُ أحسّ كأنَّ شخصاً ما يمسك قبضة الباب إيّاه ولكنْ من الناحية الأخرى . وأدركت أنَّ هذا البنّاء العجوز الذي يرتدي ثوباً أبيض ملطخاً بالجصّ هو الله نفسه ولكنْ متنكّراً . . .

عدد مّن قطارات البضائع عبر المحطّة ، ثمَّ قطارٌ بطيء ،

كانت بوارق ضوء خافت تنبعث من مقطورة الخدمة مثل الشعيرات التي تبرز من أطراف المايوهات بين فخذي الفتيات عند أحواض السباحة ، وكانت معازق السائقين تقلّب الفحم في أفران القاطرات ، وينبعثُ الضوء في عتمة الليل فيما جسد السائق الدؤوب يعكس ظلاًّ على حواف مقطورة الماء والوقود ، وتتناوب ملوّحة الوصول وملوّحة الانطلاق الإضاءة الحمراء والخضراء ، والإشارات الضوئية المثبتة على عتلات التوجيه تبرز يافطاتها البيضاء ، مثلّثاً عمودياً ضيّقاً للإشارة إلى الخط المستقيم ، ومثلّثاً أفقياً للإشارة إلى منعطف في الخطّ ، وهناك حيث يُفضي الخط إلى طريق مسدود ، قرب الليفربول ، يوجد فانوس أزرق يظلّ مضاءً طوال الليل ، وفي البعيد تَصرّ أضلاع الملوّحات كلّما تبدّل الضوء ، وفي المكتب تعلو تكّات الأجهزة ، ويحدث أن توصل العاملةُ أحد خطوط الهاتف خطأً فيصدر رنّةً خفيفة فيما كتلة التحويل تصرّ كلّما فُتِحَ جهاز إغلاق الخطوط ، وكان السيّد هوبيكا يذرع الرصيف جيئةً وذهاباً وسط هذه الزقزقة الخفيفة ورأسه يعجّ بالهواجس بسبب ذلك القطار الذي بات تحت مراقبته المشدّدة والذي سيصل بعد منتصف الليل قاطراً ثماني وعشرين عربة محمّلة بالمفرقعات . كان يتتبع ذلك القطار على مخططات السير ثمّ يصيخ السمع ويخرج إلى الرصيف ليلاً ليسبر عتمة الليل ثمّ يدخل إلى صالة الانتظار ، فيما كنتُ أفكّر في ماشا وارتعش لمجرّد أن أفكّر في ما سيحدث عندما تحين اللحظة الحاسمة . أنا أيضاً كنت واقفاً على رصيف المحطّة أنظر إلى السماء المظلمة وأرى فيها فيلمي ، جعلتُ ماشا تتمدّد على مساحة السماء كما جعل السيد هوبيكا زدنيكا تتمدّد على طاولة

التلغراف ، ورحت أنزع عنها ثيابها قطعة تلو الأخرى ، وما لبثتْ أن أصبحت ممدّدةً وهي عارية تماماً على مساحة السماء ، أما أنا فكنتُ لا أعرف ماذا أفعلَ بعْد . أو كنتُ أعرف ولكنّها تجربة لم أخضها من قبل ، إذ لم يسبق لي أن ولجتُ امرأةً من قبل باستثناء الوقت الذي قضيته في بطن أمّي ولكنَّ هذا مما لا أستطيع تذكّره . . .

ثمَّ سمعت السيّدة لانسكي تهبط السلّم وهي تحمل شمعةً بيد وباليد الأخرى قِدراً مليئاً بالفول ، وسمعتها تدخل إلى القبو حيث الوزّة تكركر من الهلع . كنتُ واقفاً على رصيف المحطة وأنظر إلى القبو من خلال مربّع كوّة التهوية ، وانحنت السيّدة لانسكي وظلُّها إلى الأمام ، تناولت حبة فول من القدر وفتحت منقار الوزّة ودسّت فيه حبة الفول ثمّ أمسكت بالمنقار كما تمسك بنصل مطواة وبحركة من أصابعها أنزلت حبة الفول في الحلقوم الطويل حتّى الحوصلة . وبعد ذلك بلّلت حبّة فول أخرى في الماء وواصلت إطعام الوزّة التي كانت تتململ بين يديها .

ـ سأعود حالاً ، خُذْ مكاني لدقيقة واحدة ، قلتُ للسيد هوبيكا ، أنا ذاهب لأبول .

سرتْ متلمساً بمحاذاة الجدار المكوَّع ، وهبطتُ السلّم الحلزوني بحذر درجةً درجة ، وفتحتُ باب القبو بهدوء :

ـ لا تخافي يا سيّدة لانسكي ، قلتُ . هذا أنا ، ميلوش .

ـ ما الأمر ؟ قالت هَلِعةً .

ومكثت بلا حراك ، حبّة فولٍ بين إصبعيها وضوء الشمعة ، من ورائها ، يلتمع من خلال خصلات شعرها الرمادي ، وكنتُ أرى وجهها المُعذَّب ، كانت أشبه بسندريلا فيما رئيس المحطّة يتلهّى بلعب دور البارون لانسكي دولاروز .

ـ هذا أنا ، ميلوش ، قلتُ . جئت يا سيّدة لانسكي لأسألك النُصحَ . إذن ، بعد غد سألتقي بصديقتي ، كما تعلمين ، ماشا ، عاملة المراقبة ؟ وبالتأكيد ستطلب منّي . . . هل تدركين ما أودّ قوله ؟

ـ لا ، غمغمت السيدة لانسكي ، وانحنت لتغمّس حبة الفول في الماء وفتحت منقار الوزّة .

ـ لا بدَّ أنّك تفهمين جيّداً ، قلتُ . لا تتظاهري بعدم الفهم ، لقد جئتُ أطلب منك نصيحة . . . الحكاية هي أنني رجل ولكنْ عندما تحين الفرصة لأبرهن على رجولتي لا أعود رجلاً . في الكتب يسمّون هذا الأمر القذف المبكر ، هل تفهمين ؟

ـ لا ، لا أفهم ، قالت السيّدة لانسكي وهي تغمّس حبّة فول في الماء .

ـ ولكن يجب أن تفهمي ، قلتُ . في هذه اللحظة مثلاً ، أظنّ . . . أعني في هذه اللحظة أنا رجل . . . أنظري بنفسك !

ـ أيتها السيّدة العذراء ! همست السيّدة لانسكي . أنا في سنّ اليأس يا ميلوش .

ـ ماذا ؟

ـ سنّ اليأس . ولكنّه أمر فظيع .

غضبت السيّدة لانسكي وأوقعت القدر .

ركعتُ على ركبتيّ لأجمع حبّات الفول وكانت السيّدة لانسكي تلمها هي أيضاً . وكنت أشرح لها في الأثناء بأنني قطعتُ شرايين معصميّ لأنني لم أستطع أن اثبت لماشا رجولتي في محترف العمّ نومان ، في محترف خمس دقائق من الانتظار فقط ، لأنني لم أستطع أن اصمد ولو لخمس دقائق فقط وأن كلّ شيء انتهى قبل أن يبدأ . وكانت السيّدة لانسكي صامتة تمسكُ الوزّة من منقارها .

ـ تحسَّسيه يا سيّدة لانسكي ، قلتُ .

ـ سأتحسّسه يا ميلوش ، قالت وانحنت إلى الأمام تماماً كما فعل ظلّها على الحائط وأطفأت الشمعة .

ـ إذن ، أنا رجل ؟ سألتها .

ـ أجل يا ميلوش ، قالت .

ـ والآن يا سيّدتي ، هلاّ أعطيتني درساً ؟ إنها خدمة أطلبها منك . أرجوك . . . لقد نصحني الدكتور برابك ، في المصحّ ، أن أبدأ تجاربي كبالغ مع إمرأة تكبرني سنّاً . . .

ـ ولكن يا سيّد ميلوش أنا ، من جهتي ، في سنّ اليأس ، ولا أريد أن أسمع منك مثل هذا الكلام ، صحيح أنني اتفهّم حالتك ، ولو كنت أصغرُ سنّاً ، يا يسوعي الرقيق ، ماذا جرى لكم جميعاً في هذه المحطّة ؟ السيّد هوبيكا وأختامه ثمّ أنت ، تأتي وتحدّثني عن تجربة أوّل البلوغ . . . ولكن ، سوف ترى كل شيء

سيكون على ما يرام بعد غد ، أنت رجل ، ورجل لا كالرجال !

من خلال الكوة كنت أرى السيد هوبيكا يتقدَّم بضع خطوات ، ورأيته ينتصب بثبات على الرصيف ويبدأ بتأمّل السماء ، وكنت أعرف جيداً ما الذي يراه فيها . لم يعد السيّد هوبيكا يرى عاملة التلغراف منفرجة الساقين وهي تسند مؤخّرتها على السحاب ، بل قطارَ بضائع يدخُلُ بطيئاً إلى المحطّة ، ثمانٍ وعشرون عربة ستتلاشى دفعة واحدة متطايرة في السماء وكأنها سحابة هائلة ، وهذه السحابة لن تتوقف عن الاتساع مثل قَزَع يتجمع في السماء قبل عاصفة صيف ، ويرتفع إلى أعلى .. إلى أعلى . . .

ـ ألستِ غاضبة مني يا سيّدة لانسكي ؟ قلتُ .

ـ طبعاً لا ، يا ميلوش ، كل هذه الأمور طبيعية ، قالت .

ثمَّ مشت متلمّسةً محاذاة الحائط وتسلقت درجات السلّم بخطى ثقيلة حتّى الطابق الأوّل ، وراحت تذرع أرض الغرفة والمطبخ جيئةً وذهاباً ، كما كان يفعل رئيس المحطّة حين لا يستطيع أن يقول لنا صراحةً مآخذه علينا فكان يفرغ ما في نفسه بشأننا عبر فناء التهوية ثمّ يهبط إلينا ، وديعاً ومُطهَّراً ، ذلك أنه إذا لم يستطع أن يصرخ عبر النافذة ، كان يصرخ في وجه زوجته ، ويخاطبها بعبارات فظيعة ويرمي بوجهها كل ما يعتمل في داخله من دنس ، ويقول لها كلَّ ما يخطر له بحيث أنَّه لم يكن مُجبراً مثلي على قطع شرايين معصميه ، ولم يكن عليه أن يشمر تنورة عاملة التلغراف وأن يطبع على مؤخرتها أختام المحطّة ، كنت أعرف سَلَفاً أن رئيس المحطة لا يمكن أن يفقد

صوابه ، فقد كانت له صحته العقليّة الخاصة به ، إذ يُطلق كلّ ما يثقل قلبَه زعيقاً في فناء التهوية والباقي على رأس زوجته التي تعرف متى ينبغي أن تصفعه على وجهه بخرقة مبلّلة أو متى تقول له كلمة صغيرة بالغة البذاءة من شأنها أن تجعله يقع على قفاه كالصفعة الفعلية التي ، على أثرها يشعر بأنّه استيقظ من كابوس .

كان السيّد هوبيكا كلّما اقترب منتصف الليل كلّما ثارت أعصابه وتنهّد ، وكان يقف للحظة ويُصغي ، ولا يتوقف عن الإصغاء . كنت أرى بوضوح أنّه ينتظر أن يُفتح الباب في أيّة لحظة وأن تمتدّ يدٌ منه حاملةً له رسالةً أو طرداً .

ـ كم هي جميلة دقّة ساعة الحائط في مكتب رئيس المحطة ، قلتُ حين دقّت ساعة الرئيس انتصاف الليل .

فُتح الباب كما لو كان ذلك بفعل مجرى هواء ، ودخلت امرأة فتيّة كانت ترتدي معطف مكنتوش مُشمّعاً وغير مزرّر وتحت المعطف تبدو بلوزتها التيرولية المزركشة بتطريز أخضر يُبرز رسوم اغصانٍ وثمر بلّوط . وكانت ترتدي تنّورة رمادية وجوربين من الصوف الأبيض وتنتعل جزمة عالية ذات لسينٍ مشدود بدقّة وأناقة .

كانت تحمل بيدها رزمة صغيرة لُفّت بشريطة .

ـ لو سمحت ، قالت بالألمانية ، أريد الذهاب إلى كيرسكو .

ـ كيرسكو ، قلتُ . يجب أن تنتظري حتّى صباح الغد ، إنها تقع في الناحية الأخرى من النهر .

ـ ولكن ينبغي أن أذهب إلى كيرسكو .

ـ إنها بعيدة . مَن تقصدين هناك ؟ قلتُ .

ـ لدي صديق هناك ، قالت مبتسمةً ثمّ أشارت نحوي باصبعها. هل أنت السيّد هوبيكا ؟

ـ لا ، قلتُ ، إنه هو .

ـ أنت السيّد هوبيكا ؟ سألته .

ـ أجل .

ـ وهذا ، قالت وهي تشير نحوي باصبعها .

ـ إنّه صديقي ، قال السيّد هوبيكا .

ـ ميلوش هرما ، قلتُ .

ـ فيكتوريا فراي ، قالت .

وانحنت ومدّت لي يدها .

ـ فيكتوريا فراي ؟ قال هوبيكا مدهوشاً .

كنت أعرف أنها الوسيط ، أفهم ذلك وأعرف أن فيكتوريا فراي هذه هي اليد التي تنقل كلمة السرّ والرسالة ، ولكن لم يبد أن الرسالة أعجبت ، حتّى اللحظة ، السيّد هوبيكا ، فقد ازداد لونه شحوباً وكأنّ ظهور هذه المرأة أفقده كلّ رباطة جأش ، وكنتُ ألاحظ أنه لم يبد أيّ رغبة ، كانت امرأة جميلة ولكنّه لم ينظر إلى نهديها أو مؤخّرتها على عادته في تعرية النساء بنظراته . وهذه التيروليّة ، أنا الذي كنت أنظر إليها ، وألاحظ أنها في الوقت نفسه كفل جميل ونحر جميل . خرجتُ إلى الرصيف واعطيت إشارة العبور لقطار بضائع ، أغرقته بالضوء الأخضر. ثمّ حين عدتُ إلى مكتب المحطة لأبلّغ المحطة المجاورة ساعة عبور القطار محطتي كانت الرزمة

قد اختفت . كانت فيكتوريا تتثاءب وتتمطّى وترمقني بنظرات معسولة . وفجأة باتت توحي لي بالثقة وحين قالت أنها تودّ لو تنام لساعة واحدة ، فتحت باب مكتب رئيس المحطة كما فعل السيّد هوبيكا في محطّة دوبروفيش قبل أن يبقر كنبة القماش المشمّع ، ودخلت وأحضرت سترتي النظامية وبسطتها على الكنبة ، كان غطاء المصباح الأخضر يُشيع ضوءاً ناعماً، وكنت أسمع الحمامات وهي لا تزال مضطربة في البرج ، بل أكثر اضطراباً مما كانت عليه حين غادرها رئيس المحطّة ، ومن يسمع هديلها المضطرب وتصفيق أجنحتها يحسب أنَّ سمّوراً أو إبن عرس تسلّل إلى برجها .

ـ أُدعى ميلوش هرما ، قلتُ متلعثماً . وتعلمين ، قطعت شرايين معصميّ لأنني أعاني ، على ما بدا لي ، من القذف المبكر . ولكنّ هذا ليس صحيحاً . طبعاً ذبلتُ مثل زنبقة في اللحظة الحاسمة مع صديقتي ، ولكني ، مع ذلك رجل .

ـ ألم تضاجع إمرأةً من قبل ؟ سألت فيكتوريا فراي بدهشة .

ـ لا ، فقط حاولت . ولهذا السبب أسألك النُصح . . .

ـ ولكن صدقاً ، ألم تضاجع امرأة مِن قبل ؟ كرّرت سؤالها بدهشة أكبر .

ـ لا ، أبداً ، ذلك أن ماشا جاءت واستلقت بجانبي في منزل عمها نومان في كارلين ، ولكنْ لم يحدث شيء بيننا . كانت ممدّدة قربي ملتصقةً بي ، وكما أخبرتك ، ذبلتُ مثل زنبقة .

ـ إذن ، هذا صحيح ، لم تضاجع إمرأةً من قبل ، قالت

وابتسمت وبدت لها غمّازتان مثل ماشا ، واكتست عيناها مسحة حنان كما لو أنّها تعجب للفرصة التي سنحت أو أنها اكتشفت شيئاً نادراً ، وغرزت أصبعها في شعري كما لو كنت بيانو ، ثمَّ نظرت إلى الباب الموصد الذي يفضي إلى مكتب المحطّة وانحنت على الطاولة ورفعت الفتيل وسمعتها بوضوح تنفخُ شعلة المصباح واحسست بيديها على جسدي وجرّتني إلى الكنبة وارتمت على ظهرها على الكنبة وجذبتني إليها ، كانت رقيقة معي ، كما كانت أمّي في صغري حين تلبسني ثيابي أو تنزعها عني ، سمحت لي بأن أساعدها في رفع تنورتها ، ثمَّ شعرت أنها ترفع ساقيها وتفتحهما ، وضعت جزمتها التيرولية على كنبة رئيس المحطّة ، وفجأةً أصبحت ملتصقاً بفيكتوريا ، كما كنت ملصوقاً على صورة ماشا وأنا في صورة صبي ببزّة بحّار واحسست أنني أغرق في نور يزداد سطوعاً وأطيرُ وارتفع من دون توقّف والأرض ترتجُّ ولم يكن سوى قصيف رعد وهديره ، كان الصخب لا ينبعث لا من جسدي ولا من جسد فيكتوريا ، بل من الخارج ، إذ بدا المبنى بأكمله مهتزّاً من أسسه ، وزجاجُ النوافذ يرتجّ وحتى الهواتف تطلق رنينها ابتهاجاً بدخولي المظفّر والمبجّل إلى الحياة ، كانت أجهزة التلغراف تدوّن من تلقائها رموز المورس ، كما يحدث أحياناً في مكاتب المحطّات أثناء العواصف ، وكنت أحسب أنني أسمع حمامات رئيس المحطة تطلق هديلها مجتمعةً ، وأرى الأفق يعلو ويشتعل بكل ألوان اللهب ، ثمَّ يهتزّ مبنى المحطّة من جديد ، وينزلقُ قليلاً عن دعائمه . ثمَّ أحسست بجسد فيكتوريا يتقلّص ويتقوّص مثل قنطرة ، وسمعت نعليها المحدّدين يثقبان كنبة القماش المشمّع ، وسمعت القماش يتمزّق ، ويواصل تمزّقه ، ولا

أدري من أين جاءت ، من أظافر اليدين والقدمين ، رعشة ساطعة تتدفّق في دماغي ، وفجأة استحال كلّ شيء إلى أبيض ، ثمّ إلى رمادي ، ثمّ إلى دكنةٍ قاتمة ، كما لو أنّ مياهاً حارقةً اندلقت عليّ ثمّ المياه الجليديّة وأحسست بوجع لذيذٍ في ظهري كما لو ضُربتُ بمسحّة بنّاء .

فتحت عيني ، كانت فيكتوريا لا تزال تغرز أصابعها في شعري وتتنهّد . أمّا أنا فكنتُ أرى من فتحةٍ في الستارة حريقاً بعيداً تتعالى ألوانه الحمراء والكهرمانية ، كما لو أنّ الفجر سيبزغ بعد قليل . وكانت حمامات رئيس المحطّة تهدل بأصواتٍ فَزِعة وتحوّم في البرج وتصطدم بالجدران والسقف ثمّ تقع على الأرض مصفقةً بأجنحتها هلعاً .

جلست فيكتوريا فراي وانصتت . مرّرت يدها في شعرها وقالت :

ـ هناك أماكن تتعرّض لغارة رهيبة .

فتحت النافذة وسحبت رباط ستارة التمويه التي ارتفعت بسرعة . وفي البعيد ، وراء التلال ، كانت حرائق جديدة تواصل اندلاعها هناك ، وراء التلال ، كانت السماء قرمزية وتتدلّى مثل ورق الجدران المنزوع ، وسط كارثة هائلة .

ـ لا بدّ أنها درسد ، قالت .

ثم نهضت وراحت تسرّح شعرها فيحدثُ المشط رنّة غريبةً في شعرها . كنت أفكّر في جسدها اللّين الذي تراءى لي فجأةً متدلّياً

من أرجوحة طائرة .

ـ ماذا تفعلين في الحياة المدنية ؟ سألتها .

ـ بهلوان ، قالت وهي تحاول تمرير المشط في شعرها الكثّ وقد أحنت رأسها . قبل الحرب كنا نقوم بألعاب بهلوانية للجمهور .

جلست على الكنبة وتحسست القماش بخفّة . كانت الكنبة ممزّقة من الوسط وبدا ساف الحشوة قليلاً . عَبَر قطار بضائع وهو يقذف باقاتٍ من الشرر . كانت فيكتوريا واقفةً أمام النافذة تزيل بالمشط الشرّارات العالقة في شعرها . وعلى الطريق ظِلّ فارسين يرتسمان على أفق السماء القرمزية .

نهضتُ ولأوّل مرّة في حياتي كنتُ أشعر بالهدوء .

ـ أشكرك ، قلتُ .

ـ وأنا أيضاً ، قالت ، ثمّ تناولت معطفها المكنتوش ودخلت إلى مكتب المحطة لتنظر إلى ساعة الحائط . تنهّدتْ . دسّت يدَها تحت بلوزتها وسوّت ثدييها تحت صدريّتها . ثمّ خرجت إلى الرصيف حيث كان السيّد هوبيكا يقف منتصباً بثبات على ساقيه وعيناه تحدّقان في السماء . تبادلا بضع كلمات . ثمّ التفتت نحوي وقالت بالألمانية :

ـ والآن . يجب أن أذهب إلى كرسكو فعلاً .

ابتسمت واجتازت حديقة رئيس المحطة ثمّ ابتعدت سالكة الممرّ المحاط بالزيزفون من جانبيه وغابت بين المنازل .

عندما وصل رئيس المحطّة على صهوة حصانه الأبيض ترجّل بسرعة وناول العنان للخادم الذي همز حصانه وغادر .

مرّ رئيس المحطة أمام برج الحمام وصرخ : «لا تخافي يا مقلتي ، يا عصافير أيّار الصغيرة ، لا ينبغي أن تخافي . ماذا فعلوا بكِ ؟ يا ملائكتي المجنّحة ! لقد عاد رئيس المحطّة ! هولا ! هولا !»

ثمّ دخل فَرِحاً إلى المكتب وجلس مفرشخاً على كرسي وقال :

ـ هوبيكا ، كلّفني سموّ الأمير بأن أبلّغك تهانيه . لقد أحضر البارون بتمان هلويغ صور زدنيكا . الحماس يعمّ السادة النبلاء جميعهم ويودون رؤيتك . والسيّد الكونت شخصيّاً كلّفني بأن أقول لك أنه يحسدك ، يا هوبيكا ، وأنّ مثل هذا الأمر ما كان ليخطر له ولو خاطرةً في البال . إنّه يدعوك إلى القصر ، يا هوبيكا ، في الأسبوع المقبل . وأثناء اجتماعنا حول المائدة ألحّوا علي بأن أقدّم تقريراً كاملاً أمام الحضور وأن أشرح لهم كيف حدث هذا .

نهض وكان التلغراف يبلّغ محطتنا .

ـ باهنهو فسبير درسدن ، بيرنا ، بوتزن . . .

خرج رئيس المحطة، إلى الرصيف وراح يزعق بالاتجاه الذي ما زالت تتصاعد فيه اصوات القصف ورفع رأسه مخاطباً السماء الملوّنة :

ـ هل كان عليكم أن تعلنوا الحرب على العالم كلّه .



أضاء السيد هوبيكا المصباح المموّه على طاولة التلغراف وفتح سجل البرقيات على طرف الطاولة وأشار إليّ بأنه يريد أن يطلعني على أمر مهمّ في السجل ؛ ولكنني سرعان ما أدركتُ أنّه أراد شيئاً مختلفاً تماماً . كان السيّد هوبيكا يبدو مغتماً وفيما كان يطلعني على نصوص البرقيات مشيراً إليها بقلمه ، كانت رصاصة القلم تهتز فترسم خطّاً متعرجاً على الورق مثل آلة تخطيط القلب . فتح الدُرْجَ بحذر شديد وتظاهرتُ بمتابعة السطر الأخير ولكني نظرت إلى الدُرْج بطرف عيني . كان نور المصباح المخروطي وحده يُضيء مكتب المحطّة ورأيتُ في الدُرْج مسدساً وشيئاً ما يشبه المصباح الكهربائي ، ولكنّه مصباح من دون فتحة زجاج إذ ثبّت مكانها نوعٌ من الساعات الصغيرة ذات رقّاص يحدث تكتكةً خافتة .

ـ ميلوش ، همس السيد هوبيكا مشيراً بإصرار إلى إحدى برقيات السجّل ، أيْسَرُ الأمور أن يقف أحدنا على الرصيف ويرمي هذا الشيء على عربة الوسط . سوف نعطي إشارة التوقف ثمّ نفتح الخط في اللحظة الأخيرة . . فيكون مجبراً على تخفيف سرعته .

ـ صحيح ، قلتُ وأنا أشعر بأن كل نافذة في صالة الانتظار وكلّ فتحة في الستائر قد تخفي عيوناً متلصّصة . حتّى أني سارعت بتناول قلم ورحت أرسم خطاً تحت إحدى برقيات السجل ،. وقلتُ بصوتٍ خفيض :

ـ هل تذكر يوم وقعت ذراع الملوِّحة ؟ هل تذكر ماذا حدث في ذلك اليوم ، حين مرّ القطار السريع ؟ إذن ، إسمع ! سأقوم بعملٍ مماثل . سأتسلق عمود الملوّحة ومن فوق سوف أنحني إلى الأمام ، هكذا ، وسأسقط العبوة الناسفة على عربة الوسط ، ثم أعود وانتظر النتائج . . . أين أصبح قطارنا الموضوع تحت الحراسة المشدّدة ؟

ـ لقد عبر لتوّه محطّة بودبرادي ، وسيصل إلى هنا في غضون نصف ساعة ، قال السيد هوبيكا وهو يُغلق الدُرج بحركةٍ من بطنه ـ وبمنتهى الغباء خَطَّ توقيعه على صفحة السجل ـ ألست خائفاً ؟

ـ لا ، لم أشعر في حياتي كلّها بمثل هذا الهدوء . . . آه ! قلتُ ، أنا رجل ، أنا رجل ، رجل مثلك يا سيّد هوبيكا ، أنا رجل وهذا أمر رائع ، أشعر بالحريّة الآن ، وأمسكتُ المقصّ الطويل ، وفتحتُ شفرتيه ثمّ أغلقتهما . وهكذا تخلّصتُ من الماضي ، هكذا .

انفجرت ضاحكاً ورفعت سمّاعة الهاتف :

ـ إنه قطار سريع ، قلتُ وأعلنتُ مُبلّغاً : جهّزوا أدوات التوجيه للقطار السريع رقم ثلاثة وخمسون وستون وواحد .

ثمّ أدرت مفتاح كتلة الموجّهات وخرجتُ إلى عتمة الليل وكانت البقعة المتطاولة لا تزال ترتسم عند الأفق كما لو أنَّ الشمس غربت لتوّها . وحرّكتُ دون جهد يذكر أذرعة الملوِّحات والإشارات . وكنت أشعر بصفاء لم أشعر بمثيله في حياتي كأنَّ أمّي تداعبني كما كانت تفعل ، في الماضي ، لتبدِّد كوابيس طفولتي . كان السيّد هوبيكا يذرع أرض المكتب بخطواته وكان يبقي عينيه مخفوضتين إذ لم يعد يخطر له أن يتأمّل السماء . وكنت أشعر بوطأتها ، مثله ، تلك المسؤولية . ماذا سيحدث ؟ حتّى لو جرى كل شيءٍ على خير ما يرام ما الذي سيحدث فيما بعد ؟ ولكنّي لم أفكر في كل هذا ، ليس لأني لم أفكر في كل هذا فقد فكّرت في كل شيء وفي التبعات كلّها وما كنت لأعبأ بها ، فالأمر الوحيد الذي يشغلني هو أن أصوّب بدقّة ، من علوّ الملوِّحة ، على عربة الوسط ، لكي يُنسَفَ القطار كلّه ، ولا أرغب في شيء آخر ، ما كنتُ أرى في السماء سوى تلك السحابة التي ترتفع أكثر فأكثر حاملةً معها ركام العربات وخطوط السكّة وعوارضها ، وكنتُ أقول لنفسي بأنّه كان ينبغي أن أفكّر في هذا الأمر من قبل ، لا لشيء ، فقط لأجل جدّي الذي ذهب بمفرده لملاقاتهم ، وحده ضدّ فرقة كاملة من الجيش باسطَ اليدين وفي دماغه المنوِّم فكرة وحيدة أن يدور الألمان نصف دورة ويعودوا من حيث أتوا . وكنت أشعر بأنَّ ما يتلبّسني اللحظة روحُ جدّي ، برغم رأسه الذي ظلّ عالقاً بين زردات زنجير الدبّابة ، وأنها هي التي تصدّ قوّات الرايخ ، فرقةً تلو الأخرى ، ودبابة تلو الأخرى ، وجندياً تلو الآخر ، حتّى قلب ألمانيا التي انطلقوا منها والتي

يحاصرهم الروسُ فيها الآن . . . . ولكنني نسيت جدّي لأني لو فكّرت فيه من قبل لحاولت أن أقوم بأشياء أخرى . كان قطاري المحمّل بالذخيرة سيصل في غضون عشرين دقيقة وكانت فرصتي لإنجاز عمل ضخم، ذلك أني لم أعد زنبقةً ذابلة. لم يخطر لي في يوم من الأيّام أنني سأجد في داخلي مثل هذه القوّة كما لم يخطر لي من قبل أنّ السيّد هوبيكا سيصبح مُغْتمًّا إلى هذا الحدّ ، إذ بات عاجزاً عن السير ، يقف أمام كتلة التوجيه ، منفرجَ الساقين يترقّب جرس الهاتف الذي سيُبلّغ عن وصول القطار الموضوع تحت مراقبتنا المشدّدة .

دخلتُ إلى المكتب ، فتحت الدُرْج ووضعتُ العبوة الناسفة في جيب سترتي وكان السيّد هوبيكا يُغطيني بجثته . وضعت المسدس في الجيب الآخر ثمّ تابعت باصبعي سطور السجّل ، وقّعتُ ووضعت القلم في الدُرْج .

توجه السيّد هوبيكا نحو اللوح الأسود حيث دوّنت بالطبشور ، منذ ليلة أمس ، كل مواعيد وصول القطارات الموضوعة تحت الحراسة الخاصة ، إنّه جدول لنحو عشرين قطاراً عسكريّاً مهمّتها إيقاف التقدّم الروسي على الجبهة ، أشار إلى هذا الجدول بإصبعه وهمس :

ـ ميلوش ، سوف أضبط لك التوقيت حتّى الدقيقة الأخيرة . . .

ـ أجل . . . ولكنّ القطار السريع خفّف من سرعته .

خرجت إلى الرصيف ، كان القطار السريع يدخل إلى المحطّة

ويتوقّف . وقفز رئيس طاقمه إلى الرصيف .

ـ إنه أمر فظيع ، قال ، درسد كلُّها تحترق .

ترجّل آخرون بدورهم من القطورة ، ومَن يراهم يحسب أنّهم سجناء فرّوا من معسكرٍ للإعتقال بسراويلهم المخطّطة، ولكنهم حين دخلوا إلى المكتب رأينا أنهم يرتدون منامات مخطّطة وفوقها سترات خفيفة فقط ، أي في الملابس التي كانوا فيها لحظة فرارهم ، منامات خفيفة تغطي أبدانهم وعظامهم الهزيلة ، كانوا يُحدقون بنظرات مستقيمة وجفون ثابتة ، وتهالك رئيس الطاقم على كرسي ومسح جبينه براحة يده .

ـ لم تعد درسد سوى كتلة نار . وهؤلاء تسلّقوا مقطورتي ، قال رئيس الطاقم ونهض بتثاقل كحصانٍ مُلتهب الحافر .

مكث لبرهة وهو يتكىء بقبضتيه على طاولة التلغراف ، ثمَّ شبك ذراعيه وظلَّ واقفاً وقد احنى رأسه قليلاً إلى الأمام ، حتّى كدنا نحسب أنَّه أغميَ عليه . كان الألمان يقفون بنفس الطريقة ويحدّقون بالأرض في ثبات ، ربّما كانوا يفكرون في اللحظات الأخيرة التي سبقت ، تقافزهم من النوافذ إلى الحدائق والشوارع وقد حاصرتهم الأشجار والجدران والأعمدة التي تتساقط من كل صوب . كانت لهم سواعد طويلة تصل إلى ركبهم تقريباً ، وكانوا ساهمين لا يرف لهم جفن وكأن هول ما رأوه بتر لهم أجفانهم . بتُّ لا أشفق لحالهم ، أنا مَنْ كان يبكي لرؤية جده مذبوحاً ، ومن بين كل مشاهد الأسى ، كان هؤلاء الألمان لا يثيرون فيَّ الشفقة . فمنذ وقت

غير بعيد حين كنت لا أزال نزيل المستشفى بسبب معصميّ، ذهبتُ لزيارة عمّةٍ لوالدي، العمّة بياتريس التي تعمل كممرّضة في المستشفى منذ خمسين عاماً وتتولّى الإشراف على القسم الذي تُعالج فيه الحروق الخطيرة، وكان معظم المصابين من الجنود الذين يتمّ نقلهم من الجبهة في مغاطس زيت، كانوا كأنّهم كائنات ضفدعية، والعمّة بياتريس تحضّر لهم حساء الخضار، وحين يكون مِنْ بينهم مَنْ يعانون أوجاعاً مبرحة تعاجلهم العمّة بحقن المورفين، ذهبت لزيارتها في مكان عملها، هناك، لأنّ العمّة بياتريس كانت تشعّ بالهدوء، قويّة ورائعة، إذ يكفي أن تنظر إليك لتحققنك بالهدوء، ربّما لأنها تعمل في ذلك القسم منذ سنوات طويلة . . . مع ذلك، يوم رأتني أبكي لحال الجنود الألمان إذ شَهِدتُ زيارة خطيباتهم وزوجاتهم وسمعت الجنود يبلّغونهن وصيّتهم الأخيرة، من قعر مغاطس الزيت، ويشيرون على زوجاتهم بالأشخاص الذين ينبغي أن يتزوّجنهن وما الذي ينبغي أن يفعلنه بالأولاد والممتلكات، عندها نهضتُ إلاّ أنّ العمّة بياتريس أجبرتني على الجلوس من جديد، كانت تقطّع جزرة وحزمة كرفسٍ وبقدونس، تقطعها وتدندن، بنغمٍ مختلفٍ كلّ مرّة، «العريف شولته سيموت غداً، العريف شولته سيموت غداً، يموت غداً، يموت غداً . . .» وكانت تغنّي هذا الكلام بلحنِ أغنية «زنبق الوادي ينبت على هذا الجسر في براغ» . . . وكانت تقطّع بالسكين الجزر والكرفس والبقدونس . . . وتعلم جيداً أنها في الغد ستحقن العريف شولته بكمية أكبر من المورفين وبذلك تختصر بضعة أيّام من أوجاعه المبرحة لأنّ العريف شولته حظي بلحظات وداعه الأخيرة . . . وفي اليوم التالي كانت

العمّـة بياتـريس ، تدنـدن ، بالصـوت الـرقيق إيّـاه ، المـلازم ديتي سيموت غداً . . سيموت غداً ، بلحنِ أغنية «خاتم الزواج الذهب الذي اهدتني إيّاه صديقتي» . . . وهي تقطّع الخضار وكنتُ أنظر إلى أولئـك الفتيـان في مغـاطسهـم ، إذ يبـدون ، جميعهم ، وكـأنهم يستحمّون فعلاً ، وما كنت أتمنّى لهم أن يموتـوا ، بل أن يعـودوا إلى زوجـاتهم وخطيبـاتهم اللواتي تكلمن معهم منذ هنيهـةٍ لآخر مـرّة ، ذلك أن الذين يُنقلون إلى الطابق السفلي ، طابق العمّة بيـاتريس ، هم الذين لا أمل في شفائهم . ولكنْ ما استطعتُ أن أرثي لحال مَنْ وصلوا من درسـد فهم لا يُثيـرون الشفقـة إلاّ لأنفسهم . وهؤلاء الألمان يعرفون ذلك . نهض رئيس طاقم القطار وقال لهم :

ـ ما كان عليكم سوى أن تمكثوا على أقفيتكم في بيوتكم .

وخرج إلى الرصيف وأشار بيده فتحـرّكت القاطـرة وقفز الـرئيس إلى عربة الطاقم .

ـ إنه الإله العطوف الذي أرسل إلينا هؤلاء الألمان ، همس السيّد هوبيكا ، فمن شأنهم أن يدلوا بشهادتهم فيما لو . . .

وتنهّـد ، أما أنـا فكنتُ أسمع عـلى طول الخطّ الحـديدي ، ومن مَركَز مُراقبةٍ إلى آخر ، صوت الإشـارة ، هذا الصـوت الذي يشبـه ضرب مطرقة على جرس مُجوّف، ولم ألبث أن أدركت بأنّه قـطاري، فدخلت إلى المكتب. كان السيّد هوبيكا يحمل سماعة الهـاتف بيده ولمجرّد أن لمحت مدى امتقاع وجهه أيقنتُ أنّه القطار الموضوع تحت حراستنا المشدّدة .

أدرتُ المفتاح . كان الألمان يقفون في حلقة حول المدفأة ودائماً بلا حراك مثل التماثيل الحجرية التي تحيط بالمسلّة الأثرية في ساحة بلدتنا . وجعل أحدهم يبكي ، بطريقة غريبة ، كان يهدل تقريباً مثل حمامات رئيس المحطة التي ايقظتها الغارة . ثمّ بكى هذا الألماني مثل كائن بشري فراح جسده يهتزّ بعنف وراح الألمان الآخرون يَنْشقون وانفجروا بالنحيب ، كلٌّ على هواه ، ولكنّه كان نحيب رجال ، نحيب رجالٍ إزاء ما حدث ، أحدُهم ، ذلك الذي يبرِّدُ رأسه باسناده إلى الحائط ، بدأ ينزف من أنفه وتهالك فجأة وقد رسم أنفه المدمّى خطّاً أحمرَ على طول الجدار .

كان السيّد هوبيكا ينظر إليّ وقد أنزل كبّيته على جبينه بحيث أنّه كان مجبراً على رفع ذقنه ليراني .

هرعت إلى السقفيّة ورفعت الملوِّحة وإشارة الدخول ، وابقيتُ إشارة الخروج مغلقة .

لحق بي السيّد هوبيكا فأخرجت العبوة من جيب سترتي ، وأضاء مصباحه الكهربائي وسلطه عليها وأدار الأزرار كما لو أنه يضبط آلة تصوير فوتوغرافي .

كانت الحمامات لا تزال عاجزةً عن الإخلاد للنوم وكان هديلها متواصلاً ، إذ كانت تقع وهي نائمة ويُسمعُ حفيف أرياشها حين تصطدم بالجدران .

ثمّ مَدَّ لي السيّد هوبيكا يداً باردة ودبقة مثل سمكة . سرت بمحاذاة الخطّ الحديدي وكانت سحابة طويلة تحجب القمر وهطل

ثلج جليدي ، فاستدرت ولمحتُ في البعيد مصباح القاطرة المموّه انقشع القمر من خلف سحابة الثلج وكانت حقول الثلج تتلألأ في الليل الجليدي وتنامت إلى سمعي من جديد تكّاتُ كل هذه البلّورات المجمّدة ، كما لو أنَّ في داخل كل بلّورة عقرب ثوانٍ ملوّناً . ثمّ تسلقت عمود الملوّحة كسُلّم . دفعت الرياح سحابة أخرى فهطل الثلج من جديد ، ثلج دقيق مثل ذبابٍ صغير . جلست مفرشخاً على المصباح وكانت القاطرة تدخل المحطّة وتطلق صفيراً هائلاً لأنَّ الخطّ غير سالك . واحسست بذراع الملوِّحة ترتفع وترفع معها يدي واستحال ضوء المصباح من الأحمر إلى الأخضر . كانت ذراع الملوِّحة المرفوعة تضمن لي حماية كافية لأنّها أضخم منّي . وصفرت القاطرة، رأيت السيّد هوبيكا يشير للسائق بفانوسه الأخضر بأن يعبر ، أما أنا فكنت جالساً فوق الملوِّحة ، وكان الثلج يتساقط فأشعر بوخز النفناف، وكنتُ أرى أن الثلج يتساقط بغزارة . أجلس بلا حراك وامسك ذلك الشيء بيدي ، وأسمع تكّة الآلة تخترق جسدي ، ثم عبرت القاطرة من أمام الملوِّحة وكانت مغطّاة بشادرٍ مموّه لكي لا تكتشفها الطائرات القاذفة عن بعدٍ ، ثمّ توالت العربات ، واحدة تلو الأخرى ، عربات مكشوفة وتكاد تكون مسطّحة ، محمّلة بصناديق البارود ، وكانت الصناديق معزولة فيما بينها بطبقات من القش ، ثلاث ، أربع ، خمس عربات ، كنت أعدّها ، وكان القمر محجوباً وراء غيمة داكنة ينــدفُ منها الثلج ، غيمة سميكة جداً ، ولكنّ القمر ، برغم ذلك ، كان لا يزال مرئياً مثل اسطوانة غارقة في شلال يتدفق ويتدحرج في مصبّه ، سبع

ثماني ، تسع عربات ، وكان الثلج يتساقط بغزارة حتّى أني ، لبرهة ، لم أعد أرى لا عربة المؤخّرة ولا القاطرة ، إحدى عشرة ، اثنتا عشرة ، ثلاث عشرة عربة ورميت الآلة بهدوء كما تُرمى وردة في ساقية ، وكنت حسبت رميتي بدقّة ، إذ رميت الآلة بدت مقدّمة العربة مباشرةً تحتي وسقطت العبوة تماماً في وسط العربة التي كانت تتقدّم لتتلقّى ذلك الشيء الذي أصبح فيها ويقود القطار الموضوع تحت الحراسة الخاصة نحو نهايته ، حتّى آخر لحظة أبقيتُ أنظاري مثبتةً على هذه العربة وعلى هذه البقعة البارزة في وسطها ، العربة الرابعة عشرة ، حتّى حجبها الثلج عن أنظاري وعزمتْ على الانتظار فوق ، طوال الدقائق الأربع لأتمتع بالمشهد من علو هذا المرصد ، الانتظار مثل خفير الصّيد حتى لحظة التدمير ، ثمّ رأيت عربة المؤخّرة تقترب وعليها برج مراقبة ، ومن البرج ينبعث مخروط طويل من الضوء ثُبّتَ عليّ، تناولتُ مسدسي ورأيت أستون بندقية تحتي مباشرة . أطلقتُ النار وأطلق أحدٌ ما النار في نفس الوقت ، سقط مصباح الجيب مضاءً على رصّة السكّة ، وسقط أحدٌ ما من برج المراقبة وتدحرج في الحفرة . أحسست بألم في كتفي وانزلق المسدس من بين أصابعي ، هويتُ رأسي أوّلاً ولكنّ معطفي عَلِق بعارضة ، حدثت طقطقة في الملوّحة وتبدّل الضوء من الأخضر إلى الأحمر وثبتت ذراع الملوّحة في وضعيتها الأفقيّة وكنتُ متدليّاً رأسي إلى الأسفل وأسمع سترتي تتمزّق ، وسقطت مفاتيحي وقطع نقودي المعدنية من جيوبي ولامست أذنيّ الطانّتين ، كنت أرى القطار يبتعد ، أراه يجتاز المنعطف مقلوباً ، من القاطرة حتّى عربة المؤخّرة

كأنه يسير على سقف الليل ، كانت فوانيس عربة المؤخرة الحمراء تبتعد وكنت أرى الجندي في الحفرة قرب الملوّحة مكوّماً مثل طابة والثلج يتساقط على ثيابه وقد فَقَدَ كبيّته فبدا أصلع الرأس . كانت سترتي تتملّع شيئاً فشيئاً واحسُّ الدمَ يسيل على عنقي تحت قميصي ثمّ يغطي وجهي ، وأخيراً أنهى معطفي تمزّقه البطيء وهويتُ ، رأسي إلى الأسفل ، على رصّة السكة السوداء المشبعة بالزيت والشحم . سقطتُ على يدي وانغرزت حواف حجر مسنّنة في راحتيّ . ثمّ تدحرجت في الحفرة وأصبحت لصق الجندي الألماني الذي كان ممدّداً على جنبه وبدا وكأنّه يمشي مراوحاً في مكانه ، كان يغرز جزمته الغليظة في الثلج حتّى تصل إلى التراب والعشب المجمّد ويشدّ على بطنه ويئنّ . وضعت يدي على فمي وسعلتُ فبصقتُ دماً . كان الجندي الألماني قد ثقب رئتيّ أما أنا فثقبتُ له بطنه . وعندئذ فهمت لماذا لم يكفّ السيّد هوبيكا عن التنهّد والبصق طوال الأمسية . كأنه توقّع نهايتي ، لأنه لم يسبق للسيّد هوبيكا أن خافَ من أي شيء ، ولكنَّ هذا أكثر مما يستطيع كأنَّ كل شيء حدث قبل أن يتمّ فعلاً . كنت أنظر إلى السماء حيث لا يزال الثلج يتساقط ، ثمّ انقلبت على نفسي وزحفتُ بصعوبة حتّى اصبحتُ بقرب الجندي الذي يئنّ ويردّد بلا توقف الكلمة نفسها : «موتّي ، موتّي ، موتّي» .

كان ينادي فيما كنتُ أنظر إليه ، وكنتُ أبصق دماً وأعرفُ أن هذا الجندي لا ينادي أمّه بل أمّ أولاده لأنّه رجل فَقَدَ شعر رأسه وبدت صلعته . ولمّا انحنيت عليه لاحظت أنّه يشبه السيّد هوبيكا

لدرجة أثارت فيّ الخوف . كان يحتضن بطنه بقوّة وكأنه يريد أن يخرج من جسده الجريح ويواصل محاولته الزحف وهو في مكانه فيما جزمته تحفر الثلج على الأرض المغطاة بالجليد .

أرخيت ذراعيّ وتمدّدت على ظهري ، وكان خيطُ دماء يسيل عند زاوية شفتي وكأنّ النيران تستعر في صدري . وفجأة رأيت ما كان السيّد هوبيكا يراه منذ البداية، رأيت أنني هالك ، وأنه ليس لي إلاّ أن انتظر أمراً وحيداً ، أن ينفجر القطار ، ففي غياب أيّ شيء آخر كان ينبغي أن أرضى بهذا في مثل حالتي إذ ليس هناك ما انتظره سوى الموت . أحد أمرين ، إمّا أن أموت بسبب هذا الجرح ، وإمّا أن يُعثر علي حيث أنا ويتولّى الألمان إعدامي شنقاً أو رمياً بالرصاص ، وخطرت لي فكرة وأدركتُ أنني كنتُ منذوراً لميتة تختلف عن الميتة التي حاولتُ أن ارتجلها في بيستريس بنسوف وما كان يغيظني هو أنني أصبت هذا الألماني في بطنه ، كان يشدّ على اسفل بطنه ويواصل تحريك ساقيه عبثاً ، وكنت أعلم أنّ لا أحد يستطيع أن ينقذه لأنّ الجروح في البطن قاتلة ، ولكن الموت الذي كان هذا الألماني يتقدّم نحوه موتٌ بعيد حتّى أن من يراه ليظنّ أنّه لن يصل إليه أبداً ، لأنّه كان يسوّي لجثته مكاناً أوسع ويردّد بانتظام :

ـ موتّي ، موتّي ، موتّي . . .

كان مداسه العسكري يحفر دماغي ، فانقلبت على نفسي وزحفت مستعيناً بمرفقي حتّى وصلتُ إلى جزمته العسكرية وأردت

أن امسكها بيدي ولكنه واصل تحريك قدميه بقوّة وسرعة حتّى افلت مني ، وكأنهما روافع آلةٍ تعمل . أخرجت من جيب معطفي رباطاً استخدمه لربط الأرقام على عربات الأطفال والدّراجات حين يصر المسافرون على نقلها معهم في القطار وقيدها ، مسحت الدماء وربطت طرف الرباط حول إحدى القدمين ، وعندما حرّك قدمه الأخرى ربطت الطرف الآخر حول القدم الأخرى فكفّت قدماه لبرهةٍ عن الحركة ، وارتعدتا ثمّ ، بقوة آلة ، قطعتا الرباط وعاودتا نبش الأرض بسرعة أكبر والجندي يصرخ بصوت أعلى :

- موتي ! موتي ! موتي !

ممّا جعلني أتذكّر أشياء ما كنتُ أودّ أن تراودني ، أمّي التي ستنتظرني في الصباح واقفةً خلف الستارة ، ولكنني لن آتي ولن انعطف عند زاوية الشارع حالما أصل إلى الساحة ، وهي لن تحرّك الستارة لتقول لي إنّها بانتظاري وإنّها سعيدة ، ذلك أنّ أمي لا تنام جيّداً حين أعمل في ورديّة الليل ، ومما لا شك فيه أنّ زوجة هذا الجندي ، هي أيضاً لم تكن لتنام جيّداً منذ رحيل زوجها إلى الجبهة ، بل تنتظر هي أيضاً هناك خلف ستارة ما أن ترى طيفاً يتقدم في الشارع أو ينعطف باتجاهها ويكون هذا الطيف هو هذا الرجل الممدّد بجواري والذي يتقدّم مراوحاً في مكانه ويناديها ويسير ويسير ولكنّه لا يستطيع أن يذهب إلى أبعد من موته . زحفت حتّى وصلت إليه وصرخت في أذنه : «أصمت ! أصمت !» (1) .

---

(1) بالألمانية في النصّ (م . ف) .

ولكنّ هذا الجندي ما كان ليسمع شيئاً ، وفيـما كنت أضعْ يـدي على الثلج لأتكىء عليها احسست بأستون البندقية البارد ، فأمسكته وانقلبت جانباً . كنا ، الجندي وأنا ، ممّددين وجهاً لوجـه . سدّدت الفوهة إلى الصـدر ، إلى موضـع القلب ولكني أخطأت في الجهـة ، كنتُ أخلط بين الجهة اليمنى والجهـة اليسرى ولكي أكـون على ثقـةٍ من الأمـر كان علـي أن أسأل نفسي بـأي يـد اكتب ، بهـذه اليـد أم بتلك ، فتأكّدت وسدّدت البندقية مباشـرةً إلى قلب الجندي لكي لا أعود أسمع صـراخه ، لكي لا يـظلّ صراخـه في رأسي ، وضغطت على الزنـاد سمعتُ دوّياً واحـرقت الشعلة الصغيرة المكتـومة قمـاش البزّة ، وانتشرت رائحة القطن والصـوف المحروق ، ولكنّ الجنـدي كان ينادي بصـوتٍ أعلى أمّ أولاده ، زوجتـه وكان لا يـزال يسيرُ في مكانه ولكنْ بسرعةٍ أكبر ، كانت الخطوات الأخيرة ، إذ لم يعد أمامه سـوى سياج الحـديقـة وخلف هـذا السيـاج البيت حيث يُقيمُ احبـاؤه . . . توقف تسـاقط الثلج ، وبـدا القمـر رائعـاً، ومن كـلّ نديفة في المـدى المغطّى بـالثلوج ، كانت تتـرامى إلى مسامعي تكـة عقـرب الثواني الملوّن ، والتمعت في عنق الجنـدي سلسلة فضيّـة ، وفيها شيء يمسك الجندي به بكلتا يديه وكان يصرخ أعلى وأعلى :

ـ موتيّ ! موتيّ !

سدّدت الفوهة إلى حاجبه وضغطت على الزنـاد وكنت ممدّداً عـلى الأرض بـطريقـة غـريبـة . ثمّ أدركتُ أنـه سكت أخيـراً ورأيت أنّ ساقيه أوصلتاه إلى آخر رحلتهما ، ببطءٍ وبلا ضجّة ، رأيتهما تتوقفان وكنتُ ممدّداً فوقه ، فوق جثة هذا الجندي وسمعت الدعةَ والصمت

يتسرّبان إلى داخله ، وسمعت كلّ شيء يتوقف مثل آلة سقطت على الأرض . كنتُ أبصق دماً وألطّخ بزّة الجندي ، تناولت منديلي لكي أمسح بقعة الدماء هذه ، كانت انفاسي متقطعة وبدأت أشعر بالاختناق ، ولكنني استجمعت ما تبقّى من قواي وانقلبت على نفسي ومددت يدي وأمسكت بالسلسلة التي كان الجندي يتشبّث بها وبدا لي أن وجهه بات هادئاً سوى أنّ ثقباً محروق الفُتحة مكان عينه اليمنى كأنّها عوينة زرقاء . انتزعت هذه السلسلة التي كان الميت يتشبّثُ بها ، وفي ضوء القمر لاحظتُ أنها ميدالية ، على أحد وجهيها نفلية خضراء ذات أربع وريقات وعلى الوجه الآخر كتابة حرز : فأل حسن . ولكنها لم تجلب لنا الفأل الحسن هذه النفلية ذات الوريقات الأربع ، لا للجندي ولا لي أنا ، ومع ذلك كان هذا الجندي رجلاً مثلي أو مثل السيّد هوبيكا . كان بلا رتبة أو أوسمة ، وها كلّ منا أطلق رصاصةً على الآخر ، كلٌّ منا قتل الآخر ، بينما ، أنا على ثقة ، أنّنا لو كنّا التقينا في الحياة المدنيّة لكنّا احسسنا بالودّ المتبادل ولكنّا تبادلنا أطراف الأحاديث .

ثمّ دوّى الإنفجار . وأنا الذي ، للحظات خَلَت ، كنت أتلذّذ سلفاً لمجرّد فكرة حدوث هذا المشهد ، كنتُ ممدّداً على الأرض بجوار هذا الجندي . مددت يدي وفتحت أصابع يده التي بدأت تتصلب ووضعت فيها هذه النفلية الخضراء ذات الوريقات الأربع التي تجلب الفأل الحسن فيما كانت سحابة ترتفع من الأرض نحو السماء ، سحابة في شكل فطر ، ترتفع وترتفع وتتضخم بطبقات متزايدة من الدخان ، كنتُ أسمع ضغط الهواء يمزق المشهد ، يئزّ

ويصفر بين أغصان الشجر العارية ونباتات الشوك ، ويهزّ خطوط تحويل الملوّحات ثمّ يثقل على الذراع ويرجّها ، ولكنّ نوبة سعال فاجأتني وبصقتُ دماً . وحتّى آخر لحظة ، حين بدأت أتلاشى عن نفسي أبقيتُ يدي في يد هذا الميت أردّدُ على مسامعه التي لم تعد قادرة على السماع ، الكلمات التي قالها رئيس طاقم القطار السريع الذي أوصل الألمان المنكوبين من درسد :

ـ ما كان عليكم سوى أن تمكثوا جالسين على أقفيتكم في بيوتكم .



ولد بوهوميل هرابال في برنو عام ١٩١٤، وبعد طفولة قضاها في «نيمبورغ»، وهي بلدة صغيرة في مقاطعة بوهيميا حيث كان والده يُدير حانة محلّية صغيرة، غادر إلى براغ عام ١٩٣٩ للالتحاق بكليّة الحقوق. ولم يحصل على شهادته (دكتوراه في القانون) إلاّ عام ١٩٤٦ بسبب إغلاق الجامعات التشيكية من قبل السلطات الألمانية المحتلّة، ولكنّه لم يُمارس مهنة المحاماة. ورغبةً منه في الانغماس في الأوساط الاجتماعية الأكثر تنوّعاً، أوجد لنفسه «مصيراً اصطناعيّاً» فعمل على التوالي كمساعدٍ لكاتب عدل، وبائع في مخزن وعامل في السكّة الحديد، ثمّ بعد نيله شهادة الدكتوراه في القانون، كموظف في شركة تأمين وبائع متجوّل وعامل في مصانع الصلب في كلادفو وكومبارس في عدد من المسرحيّات.

صدرت له في عام ١٩٦٣ أولى كتاباته بعنوان: «لؤلؤة في القعر» وقد لاقى كتابه الأوّل هذا استقبالاً حسناً لدى القرّاء ورأى فيه النقدُ آنذاك كاتباً من «براغ» في الخط الذي رسمه «ياروسلاف هازيك» و«فرانتز كافكا». وقد لاقت كلّ كتبه التالية استقبالاً مشابهاً من الترحيب والحماس النقديين وعلى الأخص روايته: «قطارات تحت الحراسة المشدّدة» (١٩٦٩، للترجمة الفرنسية) والتي اقتبسها «جيري منتزل»، أحد مخرجي الموجة الجديدة في تشيكوسلوفاكيا، للسينما ونال الفيلم الذي حققه جائزة أوسكار.

يقول هرابال في إحدى المقابلات التي أجرتها معه «المجلّة الأدبية» (الفرنسية)، عدد حزيران ١٩٨٨، «كنت في السابعة عشرة حين بدأت بالكتابة، وأحسب أن أوّل ما تأثرت به يعود إلى «جيوزيبي أونغاويتي» والسرياليين، وكان تزارا (تريستان) قد جاء في زيارةٍ إلى «براغ» في ذلك الحين. ولكنني كنتُ أيضاً قارئاً نهماً للكاتب التشيكي لاديسلاف كليما (١٨٧٨ - ١٩٢٨) وخاصة روايته: «عذابات الأمير شترنهوخ». وبرغم بداياته المبكرة فإنّ بوهوميل هرابال لم يمتهن الكتابة ويكرّس «حياته» للأدب إلاّ في سنّ متأخرة نسبيّاً، ولذلك ربّما، ظلّت أعماله، في الجانب الغالب منها، أقرب إلى السيرة الذاتيّة. ويوضح هرابال هذا الميل قائلاً: «لطالما كان الشاغل الأساس في حياتي هو التذكار. ويبدو لي أنّه الشرط الضروري والذي لا غنى عنه لمتابعة الكتابة. وبهذا المعنى ترى السيرة الذاتية هي المادة الأولى في رواياتي ولكنّها مشغولة بالحكاية المتخيّلة، بالأسطرة. ذلك أن طريقتي في الكتابة تجمع دائماً بين التحقيق الصحفي والتحويل الأسطوري (الخرافي) للواقع».

بوهوميل هرابال الذي يُعتبر إلى جانب ميلان كونديرا، أحد كتّاب تشيكوسلوفاكيا الأحياء الأكثر شهرةً، والذي ترجمت أعماله إلى عددٍ كبير من لغات العالم، لم تنقل أعماله إلى الفرنسية أو الإنكليزية إلاّ في أواخر الستينات. كما لم تنقل أيّ من رواياته، على حدّ علمنا، إلى العربيّة. ومن بين عشرين مؤلفاً صدرت له في بلاده أو تناقلها قرّاؤه سرّاً، نذكر تلك التي نقلت وصدرت في العواصم الأوروبيّة: «قطارات تحت الحراسة المشدّدة»، «أنا الذي خدمت ملك انكلترا»، «وحدة بمثل هذا الصخب»، «البلدة الصغيرة حيث توقف الزمن»، «الشعر الاضحية»، «قسوة ملمومة»، «للبيع بداعي السفر»، «الهمجي الرقيق».